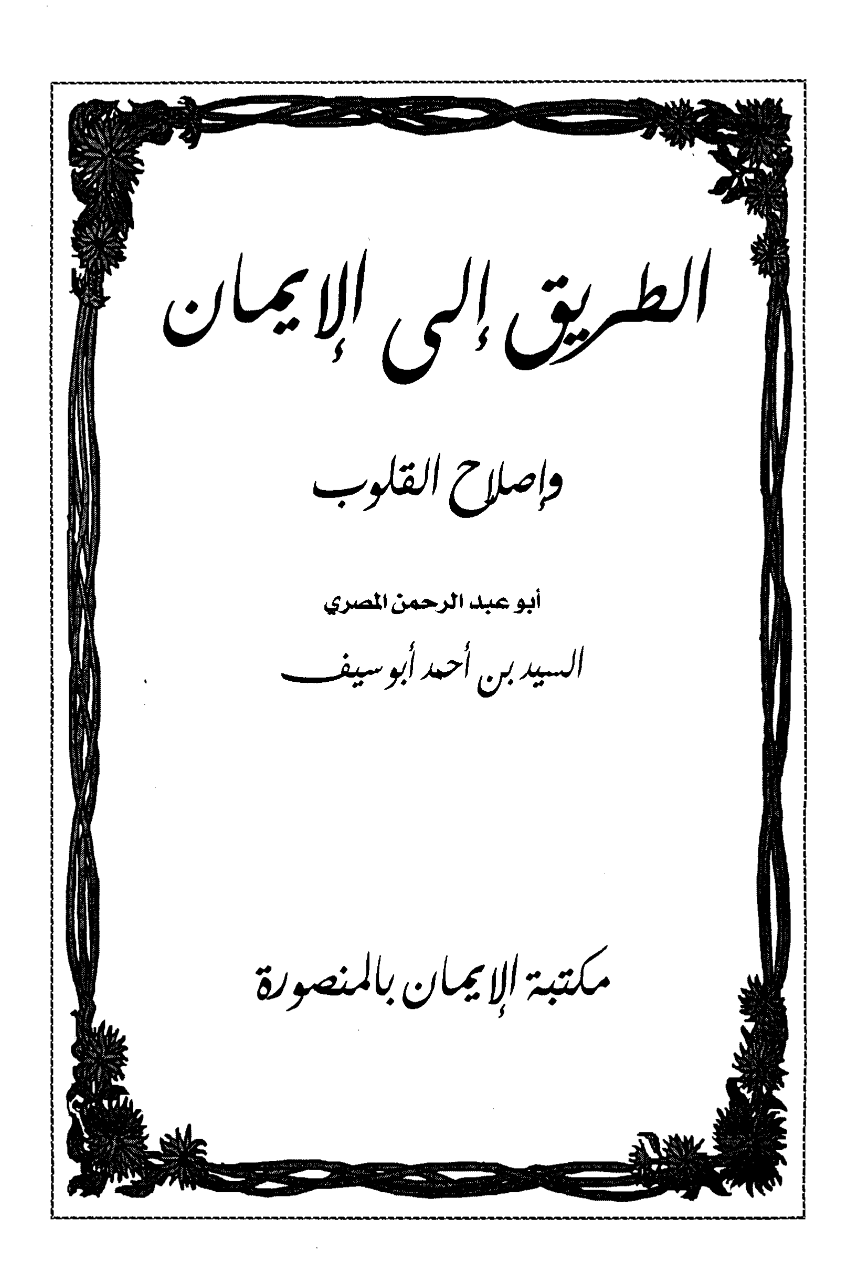


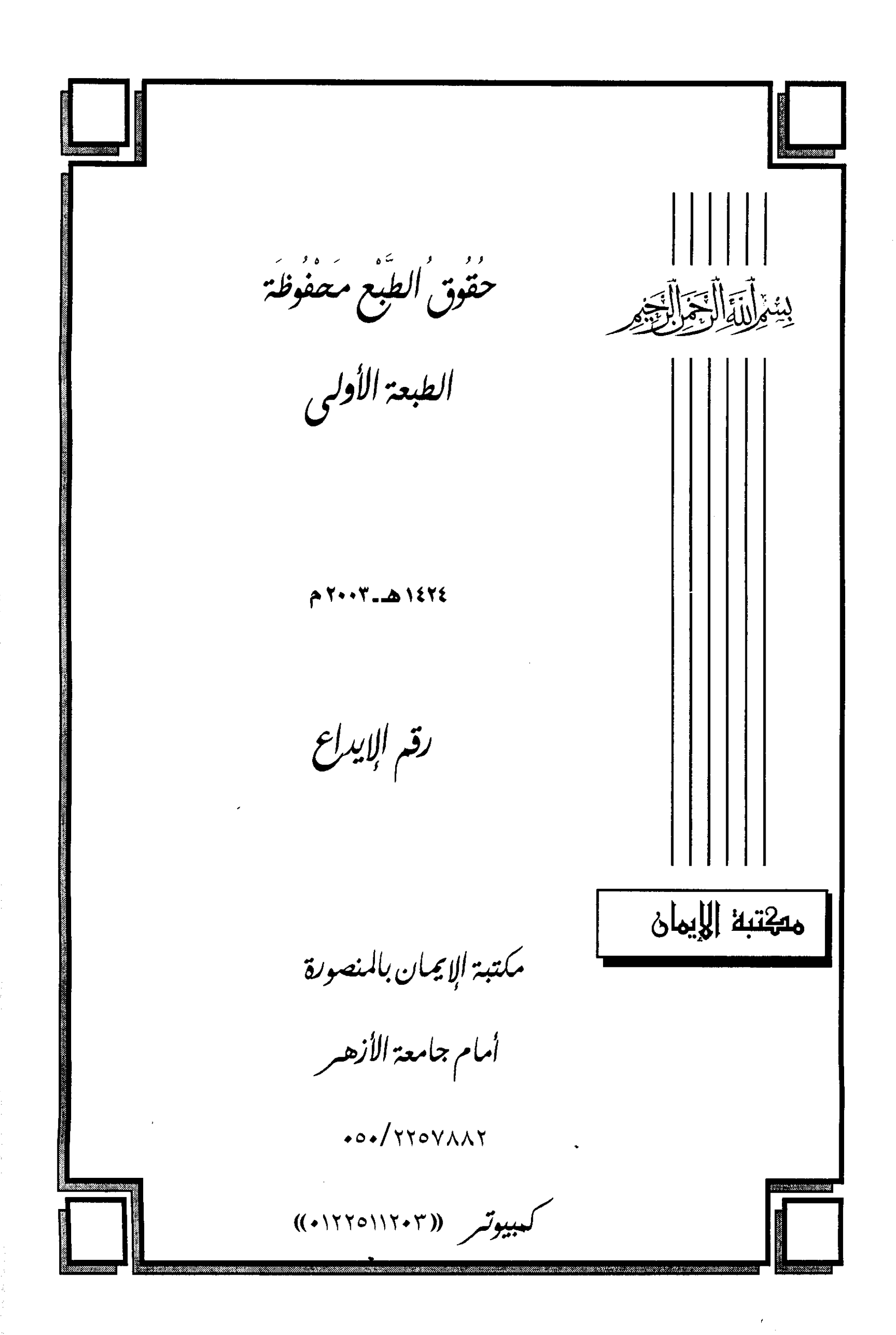
الطريق إلى الإيمان

وإصلاح القلوب

أبو عبد الرحمن المصري

السيد بن أحمد أبو سيف

مكتبة الإيمان بالمنصورة



بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م

رقم الإيداع

مكتبة الإيمان

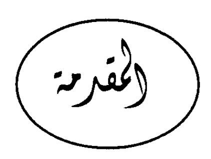
مكتبة الإيمان بالمنصورة

أمام جامعة الأزهر

٠٥٠/٢٢٥٧٨٨٢

كمبيوتر ((٠١٢٢٥١١٢٠٣))


ليس حكيمًا من أطال
الفكر في اختيار الطريق
وهو يجهل منتهاه
أبو عبد الرحمن المصري



المقدمة

إن طريقًا يسلكه السابل إلى جنة ربه، لطريق صعب المنال؛ حيث إن سلعة الله غالية، فلا يستطيعها الغافلون، وما كسدت فيبتاعها البطالون، إن هذه العقول الشاردة، وتلك القلوب الجاحدة، لهي أبعد من تَنَشُّق نسمات الإيمان الباردة، تلك التعاليم الخالدة، وأبعد من نيل تلك الحياة الراغدة، وأبعد من السُّقيا من نهر النبوة وروافده، عطاء محمد بلسانه وقلبه وسواعده.

وهذا هو الطريق لكل القلوب الحائرة، والأعين الساهرة، والهمم الغائرة، والفكَرُ الثائرة؛ كي لا تنقضي حياتها تلك النهاية الخاسرة.

فأزفُّ كلماتي لتلك النفوس المتجبرة، التي لم تصغ لنداء الإيمان إلا لحظات عابرة، تبكي عليها في الآخرة.

فهذا طريق الإيمان، لمن عاش في الحرمان، وحاد عن سبيل الرحمن، وأنساه صديقه الشيطان، كلمات ربه: القرآن، ويعيش وحيدًا ظمآن، يَتَشَوق لكأس الإيمان.

إن هذه القلوب التي نراها اليوم خرابًا يَبَابًا[١]، وقد اكتست بذلك الثوب السَّمل[٢]، يجب عليها أن تبحث عن طريق لاحب [٣]، يُعلم أوله،

---

(١) اليَبَابُ: الخراب. (٢) ثَوبٌ سَمَلٌ: خَلق بالٍ. (٣) لاحب: واضح.

ويُعلم منتهاه، تبحث عن أرض ميثاء[١]، يسهل السير فيها، ويتركوا تلك القلوب القَفِرَة [٢]، التي طَمَرَت [٣] فيها الإيمان، ونصرت عدو الرحمن، إبليس عليه لعنة الله.

إن الشريعة قد اندرست [٤] من قلوب العصاة والمذنبين، وأخص في قولي هذا هؤلاء الذين لا يعلمون شيئًا عن الإيمان، ولا يعلمون شيئًا عن ربهم، ولا يعلمون شيئًا عن نبيهم، هؤلاء الذين آثروا الحياة الدنيا وعملوا لها، ونسوا لقاء ربهم، ولم يُعدوا العدة، ولا تهيئوا ليوم طويل، يقف فيه العبد بين يدي ملك الملوك، الجبار، الواحد، القهار.

وإن الطريق وإن كان ميسرًا سهلاً على أناس، فهو بعيدٌ عن آخرين، وما سَبَرَ غَوْرَه [٥]، وسار فيه إلا من هداه الله ووفقه، وربط على قلبه، وجعل عينيه تكتحل بطاعته، وتستبصر بنوره.

وإن كل سَابِل[٦] ، سائر في طريق الإيمان قد أجهده الصبر ـ أعني: الصبر على العيش في الدنيا، والصبر عن البُعد عن الجنة، والصبر على الفوز برضوان ربه، فترى المؤمنين عند قراءة القرآن تختلج[٧] أعضاؤهم، وترق قلوبهم، وتشتاق لجنات الله ورضوانه، وتلتذ أنفسهم وأعينهم وأسماعهم لكلمات الله (عز وجل)، وإذا طالت بهم الأيام تراهم واجمين[٨]، منتظرين الملائكة عند البشارة بخروج الروح إلى رب راض؛ لتبدأ الرحلة إلى مقعدهم في الجنة.

---

(١) ميثاء : لينة سهلة.

(٢) أرض قَفِرَة: الخالية، التي ليس فيها ماء ولا ناس.

(٣) طَمَرَ : طَمَر الشيء: ستره حتى لا يُدرى، ولا يُرى.

(٤) دَرَسَ : عفا وذهب أثره.

(٥) سَبَر غوره: علم خبره وأعماقه.

(٦) السابل : المار في الطريق المطروقة.

(٧) خلج: تحرك واضطرب.

(٨) وَجَمَ: عبس وسكت عن الكلام من شدة الحزن.

وانظر إلى حال ذلك الذي خادن [١] الشيطان، ورافقه، واتبع هواه، وتجرع مرارة المعاصي، وأغطش [٢] عليه طريقه، حتى إنه إن أراد دَرأ [٣] ذلك الشيطان؛ آدَهُ [٤] ذلك وأجهده جهدًا كبيرًا، وتجده مريضًا، لا يبل[٥] يومًا، وقد غلبته نفسه وهواه وشيطانه، وقد خَفَعَ[٦] وقد احتقر نفسه وفسولتها[٧] ونأى [٨] عن طريق الإيمان، وإن رام[٩] مكانه وهواه، انحدر في ظلمات الحيرة، ذلك أنه معه صبابة[١٠] من الإيمان، لا تعينه على نفسه وهواه، وإن خرج من رُزء[١١] لَجَّ [١٢] في أرزاء، ولا يبرح ذلك إلا بالسعي في طريق الإيمان، وعيناه مخضلتان[١٣] بدموع التوبة والندم، والحسرة والألم، وبعد لأي[١٤]؛ قد يصل إلى مراده إن ثبت وثبت فؤاده؛ لأن ما ارفض[١٥] من قلبه يحتاج إلى تنضيد[١٦].

فذلك الرجل الضارع[١٧]، يتألم ألمًا مُمضًا[١٨]، وفي بعض الأحايين[١٩] يقف على أطلال [٢٠] إيمانه، بعد أن أضاعه بيده وبهواه، واتباعه إياه، وبسخط من مولاه، بما قدمت يداه، لا بد له من طريق يعلم فيه مداه، ومنتهاه، ويتحمل البعد عن شيطانه ونفسه وهواه، فإن عزم على ذلك، فها

---

(١) خادن : صادق.
(٢) أغطش: أظلم.
(٣) درأ: دفع.
(٤) آده: بلغ منه مجهوده.
(٥) أبلَّ من مرضه: برئ منه.
(٦) خَفَعَ: ضعف من جوع أو مرض.
(٧) الفسولة: الانحطاط وضعف المروءة.
(٨) نأى: بعُد عنه.
(٩) رام مكانه: زال عنه وفارقه.
(١٠) الصبابة: البقية من الشيء.
(١١) الرزء: المصيبة.
(١٢) لجَّ: دخل.
(١٣) مخضلتان: مبتلتان.
(١٤) اللأي: الجهد والمشقة.
(١٥) ارفض: تفرق.
(١٦) نضد الشيء: ضم بعضه إلى بعض متسقًا فهو : نضيد.
(١٧) الضارع: الضعيف، النحيل.
(١٨) مُمض: مؤلم.
(١٩) الأحايين: جمع أحيان، وأحيان جمع حين، وهو الوقت المبهم.
(٢٠) أطلال: ما بقي شاخصًا من الآثار.

هو الطريق رسمناه، وأوضحنا لك أوله ومنتهاه؛ فهيئ قلبك، وأحضر سمعك وبصرك، ونور عقلك.

أبو عبد الرحمن المصري

السيد بن أحمد أبو سيف

منية ـ سمنود ـ دقهلية ـ مصر
٠١٢٢٥١١٢٠٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تمهيد

أمـا آن لتلك القلوب القـاسيـة، أن تخشـع لذكر الله؟! أمـا آن لتلك القلوب القفرة أن يُستنبت فيها نبت الإيمان؟!

إن تلك القلوب الناخرة[١]، العاجزة، التي بُليت بآكَام [٢] من الذنوب، تلك التي حالت بينها وبين السير في الطريق اللاحب[٣] الذي خطه لنا محمد (ﷺ)، تلك القلوب التي ضنت[٤] على صاحبها بحياة العز والشرف، لا بد لها أن تعـرف طريق الصواب، وأن تمحـو آثار الذنوب والمعاصي من جـميع أصقاعها[٥]، وأن تُخرج ذلك الصدإ؛ الذي علاها، وأن تحيص [٦] عن طريق الشيطان ، ولكن **كيف السبيل إلى ذلك؟ وكيف نسلك طريق الإيمان؟**

إن كنا نريد أن نـسلك طريق الإيمان، فـعلينـا ـ أولاً ـ أن نعـرف مـا الطريق؟ وما الإيمان؟ كي نتمكن من السير في الطريق؛ لنصل إلى الإيمان؟

أولا: الطريق:

إن معنى الطريق، هو: المَمَرُّ الواسِعُ الممتَدُّ. ذلك في اللغة.

أما ما نخصـه بالذكر، فهو: السبيل، والأعـمال، والأقوال، التي إن تبعها الإنسان، اسـتطاع أن يشعر بلذة الإيمان، وحلاوة الإيمان، واستطاع من

(١) نخر الشيء: بلي وتفتت. (٢) الآكام: التلال، ومفردها أَكَمَة.
(٣) الواضح. (٤) ضنَّ به عليه: بخل به بخلاً شديدًا.
(٥) الأصْقَاعُ: النواحي. (٦) حاص : حاص عنه: عدَلَ وحادَ.

خلالها أن يعيش إنسانًا كريمًا.

وهل للإيمان حلاوة [١] يستطيع الإنسان أن يتذوقها؟

والجواب: نعم! إن للإيمان حلاوة، ولكن هذه الحلاوة لا تعرفها إلا القلوب الطاهرة، فانظر إلى قول هرقل، عندما سأل عن محمد (ﷺ) وأصحابه، وعلم من صفاتهم أنه النبي حقًا، وأنهم هم المؤمنون حقًا، فقال: «**وسألتكم: هل يرتد أحد منهم عن دينه سخطة له بعد أن يدخل فيه؟ قلتم: لا، وكذلك الإيمان، إذا خالطت بشاشته[٢] القلوب، لا يسخطه أحد**»[٣].

فهكذا كان يُعَرِّف هرقل الإيمان، بأنه ـ أي: الإيمان ـ يلقى القلب لقاءً جميلاً، بشوشًا، فلا يحدث السخط بعد ذلك، لأن هذا اللقاء هو التقاء الإيمان مع القلوب الطاهرة، النظيفة، الخالية من ذلات الشيطان، المحبة لربها (عز وجل).

واليك مثالاً ليتضح الأمر:

هناك قلوبٌ كانت طاهر، تبحث عن الإيمان، ولكنها لا تعرف طريقه، فلما بدا لها أول الطريق، عضت عليه بالنواجذ، فاختلطت حلاوة الإيمان بطهارة القلوب، فثبتت على الحق.

ومن هؤلاء: أبو ذر الغفاري، فإنه كان يبحث عن الإيمان، عن الحق، عن الطريق التي بها يتوصل إلى أن يعيش كريمًا، إلى الطريق التي بها يسلك السُبل إلى ربه، فلما علم بخبر النبي (ﷺ) أرسل أخاه ليأتيه بما يريح قلبه، ويأتيه بما يبحث عنه، فلما ذهب أخوه، وعاد فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، وكلامًا ما هو بالشعر، فقال له أبو ذر: ما شفيتني مما أردت، أي: كل إنسان عاقل يستطيع أن يأمر بمكارم الأخلاق، ويتكلم كلامًا ليس هو بالشعر، فأي جديد في هذا، ولكن ما كان يبحث عنه أبو ذر هو

(١) حلا الشيء (حلاوة)، كان حلوًا، وحلا الشيء له: لَذَّ، وحسن، فهو حلو.

(٢) بش وجهه: تهلل، وبش فلان بفلان: لقيه لقاءً جميلاً.

(٣) جزء من حديث خرجه البخاري في «صحيحه» برقم (٧)، ومواضع أُخر.

: «**الإيمـان**» فتزود ـ أي: حمل طعامًا وشرابًا ـ وتوجه إلىٰ مكة، فأتىٰ إلىٰ المسجد، وقابل علي ابن أبي طالب، وأخذه إلىٰ محمد (ﷺ)، وهنا يخالط الإيمان، ويعـانق بشاشـة قلب أبي ذر، وهنا يجـد أن قلبـه يحـتضن هـذا الإيمان، هـٰذا النور الذي كان يـبحث عنه في ظلمات الدنيا، فمـا أن استمع إلىٰ كلمـات محـمد (ﷺ) حـتىٰ أسلم، ولم يتردد، وقـال له النبي (ﷺ) «**ارجع إلىٰ قومك فأخبـرهم حتىٰ يأتيك أمري**» أي: ابتعـد عن مكة كي لا يصيبك الأذىٰ، ولا يعتدي عـليك أهل مكة، لخوفه عليه وعلىٰ إيمانه من أن يرتد عن الإيمان بسبب التعذيب، ولكن هـٰذا القلب الذي وجد ضالته، هـٰذا القلب الذي وجد ما كان يبحث عنه، وجد «**الإيمـان**» لا يستطيع أن يخفي هـٰذا النور... هـٰذا النور الذي جاوز قلبه، وملأ سمعه، وبصره، وجوارحه، فمـا كان منه إلا أنه نسي أنه رجل واحد، ونسـي أنه ضعيف ـ بالنسـبة لمكة مجتمـعة ـ، ونسي أنه بهـٰذا الإيمان قد اكتـسب عداوة كل الكافرين، الذين يمثلون كل الأرض وقتذاك، وفاضت هـٰذه الروح التي بين جنبيه، وخرج إلىٰ مكان مرتفع، لا يريد إلا أن يُعلن للكون كله أنه وجـد ما كان يبحث عنه، وجد الإيمان، وجد طريقـه إلىٰ ربه، فاعتلىٰ مكانًا وصرخ بلسـانه، وبقلبه، وبجوارحه، وبكـل ما أوتي من قوة: «**أشهد أن لا إلـٰه إلا الله، وأن محمداً رسـول الله**» فهو في حالة لا توصف، فالإنسـان إن كان له قريب غائب منذ زمن بعيـد، ورآه في بعض الطرقات فجـأة، فإنه يعتنقـه، ولا يهتم بنظرات الجائلين من حوله، فـهـٰذه هي حالة أبي ذر عندما وجد الإيمان، فـقد وجد الغائب العزيز، الحبيب، فاعتنقـه، وأعلن أمام جماهير المشركين والكفار أنه وجد ما كان يبحث عنه، ولا يعبأ [1] بهم، ولا بقوتهم إلىٰ جوار تلك القوة التي استمدها من هـٰذا الإيمان.

ومـا كان منهم ـ أي: كـفـار مكة، الذين أظلمت قلوبهم، ورفـضت الإيمان ـ إلا أن قاموا عليه فضربوه حتىٰ أضجعوه، ووقع علىٰ الأرض، وهم

(١) ما عبأ به: لم يعده شيئًا، ولم يبالِ به.

بذلك يظنون أنهم نالوا منه، وأنهم يستطيعون أن يردوه عن إيمانه، وهم بذلك لم يفهموا أنهم يضربون حيوانيته، ولا يستطيعون أن يؤذوا نفسه الروحية، فلم يعلموا أن الإنسان مكون من طبيعة حيوانية، بها يأكل، ويشرب، ويتناسل، ويعيش بها كما تعيش البهائم وسائر الحيوانات، ونفس روحية هي الحياة بعينها، وهي التي يسمو بها الإنسان، وهي التي يعرف بها طريق ربه، وهي التي يخالط بها الإيمان، ويعانقه، فلا يتركه أبدًا.

وهم لغلبة الحيوانية عليهم، ظنوا أن العذاب يقع عليه، ولم يعلموا أن روحه تستلذ بهذا العذاب ـ وإن تألم الجسد ـ ذلك العذاب الذي به خلاص النفس من أمراضها، وبه خلاص الروح من علائقها بالدنيا، وبه استزلال الشيطان، ولكنهم لم يفهموا تلك المعاني، وقاموا عليه يضربونه ظنًا منهم أنه سيلقي هذا النور وراء ظهره، وظنًا منهم بأنه سيؤثر حيوانيته على نفسه الروحية كما آثروا هم من قبل.

لذلك ظن أهل الكفر والظلام أنه سيعود عن إيمانه، ولكنه عاد من اليوم الثاني يقف في مكانه بالأمس، ويقول كلماته التي تخرج من قلبه، ومن نفسه الطاهرة «**أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله**» يعلنها ثانية.

إذن، الطريق هو الأعمال التي يقوم بها الإنسان ليمهد للإيمان.

وإن أول هذه الأعمال وأجلها وأعظمها هو: إعداد القلب، إعداد القلب لذلك النور الذي أنزله الله ليخرج الناس به من الظلمات من ظلمات النفس، وظلمات الكفر، وظلمات الشرك، وظلمات الشيطان.

فكفار مكة كانوا يعلمون أن محمدًا هو النبي المرسل حقًا ولكنهم كانوا يمتلكون قلوبًا أشد قسوة من الحجارة، قلوبًا لا تعرف معروفًا، ولا تنكر منكرًا، قلوبًا غلبت عليها الحيوانية، واندرست فيها الروحية، هذه القلوب التي أخبر عنها النبي (ﷺ) في حديثه عن القلوب: عن حذيفة قال: حدثنا رسول الله (ﷺ) حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر، حدثنا «**أن**

الأمـانة نزلت في جـذر قلوب الرجـال، ثم نزل القـرآن، فعلمـوا من القـرآن وعلمـوا مـن السنة» ثم حدثنا عن رفع الأمـانة، قال: «**ينام الرجل الـنومـة فتـقبض الأمـانة من قلبـه، فيظل أثرها مـثل الوكت، ثم ينام النومـة فتقـبض الأمانة من قلبه، فـيظل أثرها مثل المجل، كجمر دحـرجته على رجلك، فَنَفط فتراه منتبـرًا وليس فيه شيء** (ثم أخذ حصى فـدحرجه على رجله) **فيـصبح الناس يتبايعون، لا يكاد أحد يؤدي الأمانة، حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أمينًا، حتى يقـال للرجل: ما أجلده، ما أظرفه، مـا أعقله، وما في قلبه مـثقال حبة من خردل من إيمان**»[1].

فإن الأمانة التي في الحـديث هي: التكليف الذي يكلف الله (تعالى) به عبـاده، والعهد الذي أخذه عليـهم، وقال «صاحب التحـرير» الأمانة في الحـديث هي الأمانة المذكـورة في قوله (تعـالى): ﴿**إِنَّا عَـرَضْنَا الأَمَـانَةَ**﴾ [الأحزاب: ٧٢] وهي عين الإيمان، فإذا استمكنـت الأمانة من قلب العبد قام حينئذ بأداء التكاليف، واغتنم ما يرد عليه منها، وَجَدَّ في إقامتها.

فالله (عز وجل) قـد أنزل الأمانة، والإيمان في قلوب الناس جمـيعًا، فما من أحـد إلا وهو متعلق القلب بالله (عز وجـل)، وما من أحد إلا وهو يحب الإيمان، وذلك كما قال (تعالى): ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ**﴾، أي أنهم جـحدوا رسـالة مـحمـد (ﷺ)، على الرغم من أن أنفـسهم قـد استيقنتها، وعلمتها، وتمنت أن لو اتبـعتها، وإن قال قائل: فإن كانت الأمانة قد نزلت في قلوب الناس جميعًا، فلماذا آمن البعض، ولم يؤمن الكل؟

قلنا: إن الأمانة نـزلت على الناس جميـعًا، ولكنها تـرفع من البعض بسبب جحودهم، وطغيانهم، وعدم تقبلهم لها، ألا ترى أن كفار مكة كانوا يعلمون أن محمدًا هو رسول الله حقًا، ولكنهم جحدوا الرسالة، وكرهوا ما أنزل الله. ذلك لأنهم آثروا الهـوى من قـبل، وآثروا اتبـاع الشـيطان، وهم

---

(١) الحديث صـحيح، خرجـه مسلم في «صـحيحـه» (١/ ٤٤٥ ـ ٤٤٦) (٦٤) باب رفع الأمانة والإيمان «ح» (٢٣٠).

أحبوا الفتن والشهوات، وأصبحت قلوبهم مظلمة خالية من الإيمان والأمانة بما كسبت أيديهم.

فقد قال (ﷺ): «**تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأي قلب أشربها نُكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نُكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مربادًا كالكوز مجخيًا لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا، إلا ما أشرب من هواه**»[1].

وهذا الحديث من رسول الله (ﷺ) مصداقًا لما حدث مع أبي ذر، فإن الله (عز وجل) أنزل الأمانة في قلبه، وابتلاه بالفتن، ولكنه تمسك بهذه الأمانة، ولما عرضت الفتن على قلبه، أنكرها، فكلما أنكر منها فتنة نكتت في قلبه نكتة بيضاء، حتى صار قلبه مثل الصفا، فلا يضره آنذاك مكر الكافرين، ولا تعذيب الضالين، ولا تضره الفتن ما دامت السموات والأرض، وعلى النقيض من ذلك أحوال أهل مكة الذين رفضوا الإيمان، فإن الأمانة نزلت في قلوبهم، ولكن لم تجد لها مكانًا، حيث إن قلوبهم ملئت بالشهوات، وكيف لنور الله أن يجتمع مع شهوات النفس والشيطان في قلب واحد، وقد قال الله (تعالى): ﴿**مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ**﴾ فالقلب إما أن يكون عامرًا بالإيمان، وإما أن يكون خرابًا يبابًا منه. فأهل مكة آثروا الشهوات، وكلما عُرضت عليهم فتنة استلذتها قلوبهم، واشتهتها، فتترك هذه الفتنة نكتة سوداء في قلوبهم، إلى أن صارت قلوبهم سوداء مقلوبة، لا تستقبل الإيمان، حيث إنها قُلبت، والإيمان لا يأتي إلا من أعلى، فلما قلبت؛ أصبحت غير مهيأة لدخول الإيمان فيها، ثم لما كان ذلك حالهم، ناموا ورفع الله من قلوبهم الأمانة، فأصبحوا بلا إيمان، ولا أمانة، فأصبح الرجل لا ينكر منكرًا، ولا يفعل إلا ما أشرب من هواه، وإن تراءى له الحق، ولكنه لا يرى إلا ما يراه قلبه الأسود من الشهوات، فكم من أناس

---

(١) الحديث صحيح، خرجه مسلم في «صحيحه» (١/٤٤٦) «ح» (٢٣١).

علموا أن الصلاة حق، ولم يصلوا، وكم من أناس علموا أن الغناء محرم، واستمعوا إليه، وكم من أناس علموا أن الله حق، ولم يعبدوه، فهؤلاء هم الذي أصبحت قلوبهم قاسية سوداء، لا ترى إلا المعاصي، ولا تتبع إلا الشهوات.

إذن فما الطريق إلى إصلاح هذه القلوب؟

إن الطريق إلى إصلاح هذه القلوب ينحصر في أشياء:

١ ـ تحريك الهمم نحو الإيمان وحبه.

٢ ـ إبعاد الشهوات عن القلب.

٣ ـ إعمار القلب بالأعمال الصالحة.

فالإنسان إذا ابتعد عن الشهوات، وترك المعاصي، فهو بذلك تُعرض عليه الفتن وينكرها، فبذلك يُنكت في قلبه نكتة بيضاء، ولكنها تكون ضعيفة، هذيلة أمام الشهوات، ولكن رغم ضعفها فهي من عند الله، وهي قادرة على أن تثبت، وإن عرضت عليه فتنة أخرى ثبت، وهكذا إلى أن يصبح القلب أبيضًا مثل الصفا، ويجهد نفسه في أعمال الطاعة؛ ليعود القلب على الطاعة وحبها، وبذلك ـ أي: بأن يبتعد الإنسان عن المعاصي، ويُقبل على الطاعات ـ فإنه يكون مهيئًا لاستقبال الإيمان، لاستقبال النور الذي يقذفه الله في القلوب الطاهرة، القلوب النقية، القلوب التي خلت من الشهوات.

أي: إن الإيمان ليس بالأفعال وحدها.

فكم من أناس يصلون، ولا صلاة لهم، وكم من أناس يجاهدون ولا جهاد لهم، وكم من أناس يتصدقون ولا صدقة لهم، لماذا؟

لأن الله (عز وجل) أخبر بأن الإنسان في خسر، ثم استثنى الذين آمنوا، ثم بعد هذا الإيمان عملوا الصالحات، فشرط قبول الأعمال هو: الإيمان، ألا ترى أن رسول الله (ﷺ) أخبر أن الإسلام بني على خمس،

أولها: شهادة أن لا إلـه إلا الله، وأن محـمدًا رسول الله، ثم إقامة الصلاة، فمن لم يشهد هـٰذه الشهادة، فـلا صلاة له، ومن شهد وجحد الصلاة، فلا صيام ولا زكاة ولا حج له، فهو البناء الذي له قاعدة، وله طوابق، فإنك لا تستطيع أن تصعـد من الأدنى إلى الأعلى إلا على المعارج ـ أي: الدرجات ـ فإن لم تشـهد أن لا إلــه إلا الله، وأن محمـدًا رسول الله، فلا تُـقبل منك الأعمال، ألا ترى أن اليهود والنصـارى يشهدون أن لا إلـه إلا الله، ولكنهم لا يؤمنون بمحمـد (ﷺ)، فلا أعمـال لهم، ومن شهـد أن لا إلـه إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ثم جحد الصلاة فلا أعمال له، ولا قبول منه.



أولا:

بداية الطريق

«إصلاح القلب»

الإيمان والقلوب

مما سبق يتضح - لنا - أن القلب هو محل الإيمان، وقد أخبر الله (عز وجل) في آيات كثيرة، وأمرنا فيها بأن نطهر القلوب، حتى تكون مهيأة لاستقبال الإيمان، وقد توعد الله (عز وجل) لمن لم يطهر قلبه بأشد العقوبات، منها:

- **أن الله (سبحانه) يحول بينه وبين قلبه:**

فما من قلب إلا وله أمنيات، وما من قلب إلا وهو يبغي لصاحبه النعيم في الدنيا والآخرة، وإن نعيم الدنيا في: عبادة الله، وأعظم نعيم الآخرة: التلذذ بالنظر إلى وجه الله (عز وجل)، وإن دَلَصَت[1] قلوب الناس، واستضاءت بنور الإيمان زادها الله بريقًا ونورًا، وإن أعرضت القلوب وأبت إلا اتباع الهوى والنفس والشيطان؛ حَال الله بين المرء وبين قلبه، وجعل نعيمه في شقاء الدنيا، ولم يعطه منها النعيم الحقيقي في القرب من الله، وطاعته، وقراءة كتابه، والتذلل لله وحده، وأعد له أعظم عذاب في الآخرة **﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾** [المطففين: ١٥].

فحجبهم عنه - لاتباعهم شهواتهم - في الدنيا والآخرة، فأي نعيم بعد هذا وأي راحة لهذا الشقي في الدنيا والآخرة.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

فإن لم يستجب لطاعة الله واتباع سنة رسوله، جعله الله من المحرومين في الدنيا والآخرة، فيحرم في الدنيا من نور الإيمان، ويعيش في حَنَادِس[1]

(١) دَلَصَ الشيء: ذَهَّبَه فصار له بريق.

الشهوات والهوىٰ فيحرم من الوقوف بين يدي ربه في الصلوات، ويحرم لذة الدعاء إلىٰ الله (عز وجل)، ويحرم قراءة كتاب ربه وكلماته، ويحرم الخلوة بربه في الثلث الأخير من الليل، ويحرم من ذكر الله الذي هو حياة القلوب والنفوس.

أن القلوب تعمى:

إذا دَلَقَ [٢] نور الإيمان من القلب؛ حلت فيه الظلمات بأنواعها، فتجد القلب قد لَهِجَ [٣] المعاصي لهجًا، فأصبح القلب لا ينكر منكرًا، ولا يعرف معروفًا، وإذا عُرضت عليه الشهوات استحسنها، وإذا عرض عليه الإيمان زاده [٤] بكل ما أوتي من قوة.

وإذا أحسن الله إليه؛ شكر للناس، ولم يشكر لله، وظن أنه تملك الدنيا، وأنه خالد فيها، وإذا قيل له: اتق الله؛ أخذته العزة بالإثم، وإذا رأىٰ من آيات الله استهزأ بها، وأعرض عنها.

﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾ [الحج: ٤٦].

إغفال القلب عن ذكر الله (تعالى):

إذا آثر الرجل أن يعيش في الظلمات، ونأىٰ عن الإيمان، فإن الله يرسل إليه مَن يذكره، وقد يبتليه في ماله، أو نفسه، أو ولده؛ ذلك ليذكر الله، فإن أبىٰ إلا الإعراض، فإن الله يُغفل قلبه عن ذكره؛ ليجعله من المحرومين من ذكر الله، وإن أغفل قلبه، وأعماه، فلا ينفعه بعد ذلك شيء، فيستمع إلىٰ القرآن، فلا يشعر به، ويستمع إلىٰ آيات الجنة؛ ولا يشتاق قلبه لرؤية الجنة ونعيمها، ورؤية ربه في الآخرة ويستمع إلىٰ آيات العذاب، ولا يستشعر أنها إنما أنزلت فيه وفي أترابه[٥].

---

(١) الحِندسُ: الظلمة، والليل شديد الظلمة.
(٢) دَلَقَ: خَرَجَ.
(٣) لَهِجَ: أوله بالشيء، واعتاده وثابر عليه.
(٤) زاده: دفعه وطرده.
(٥) التِّرْبُ: المماثل، وأكثر استعمالها في المؤنث.

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨].

أن يختم الله على قلبه:

فإن رضي - بما تقدم - ولم يتب، وأعرض عن ذكر الله، ولم يندم ويمحو آثار الذنوب؛ ختم الله على قلبه؛ فلا يعقل الحق، وختم على سمعه، فلا يسمع إلى النصح في الله، وختم على بصره؛ فلا يرى إلا الشهوات، فأنى له الهداية، ومن ذا الذي يستطيع أن يهديه، وقد أضله الله، باتخاذه هواه إلهًا من دون الله (عز وجل).

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٣].

أما من علم الله (عز وجل) أن في قلبه إيمان؛ فإنه يمهد له طريق الإيمان، فإذا علم الله أنه يبحث عن الإيمان، ويبحث عن رضى الله فإنه (عز وجل) ييسر له كل شيء:

يشرح صدره للإسلام:

إن الله إذا علم أن في قلب عبده إيمان نشاه[1]، حتى يفوح على جوارحه كلها، وجعل نور قلبه يفوح ، ويخرج من قلبه إلى وجهه، وعينيه، فلا ينظر إلى ما حرم الله، وعلى أذنه، فلا يستمع إلى ما حرم الله، وعلى لسانه، فلا ينطق بشيء يغضب الله، وعلى رجليه، فلا يسير إلا في طاعة الله، وعلى يديه، فلا يبطش بها فيما لا يحبه الله، وكانت الأعمال التي يحبها الله هي قرة عينه.

﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَٰئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الزمر: ٢٢].

يصلي الله عليه:

إن صلاة الله (سبحانه) على عباده هي: ثناؤه عليهم في الملأ الأعلى؛

(١) نَثَا: بث، نَثَا الخبر: نشره.

لأن الصلاة أخص من الرحمة، فقد قال (تعالىٰ): ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٧]. فجمع بين الصلاة والرحمة.

فكيف بك إذا كنت من الذين يثني الله عليهم في الملأ الأعلىٰ، ويأمر الملائكة بأن تصلي عليك؛ أي: يدعون لك بالمغفرة وبالبعد عن النار ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

ثم إن الله ينادي جبريل، ويخبره بهذا الحب، فيحبك جبريل، ثم يحبك أهل السماء، ويوضع لك القبول في الأرض.

قال (ﷺ): «**إذا أحب الله عبدًا نادىٰ جبريل: إن الله يحب فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانًا؛ فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض**». فما أعظم نعم الله علىٰ عباده، يريد لهم الخير، وهم في غفلة.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

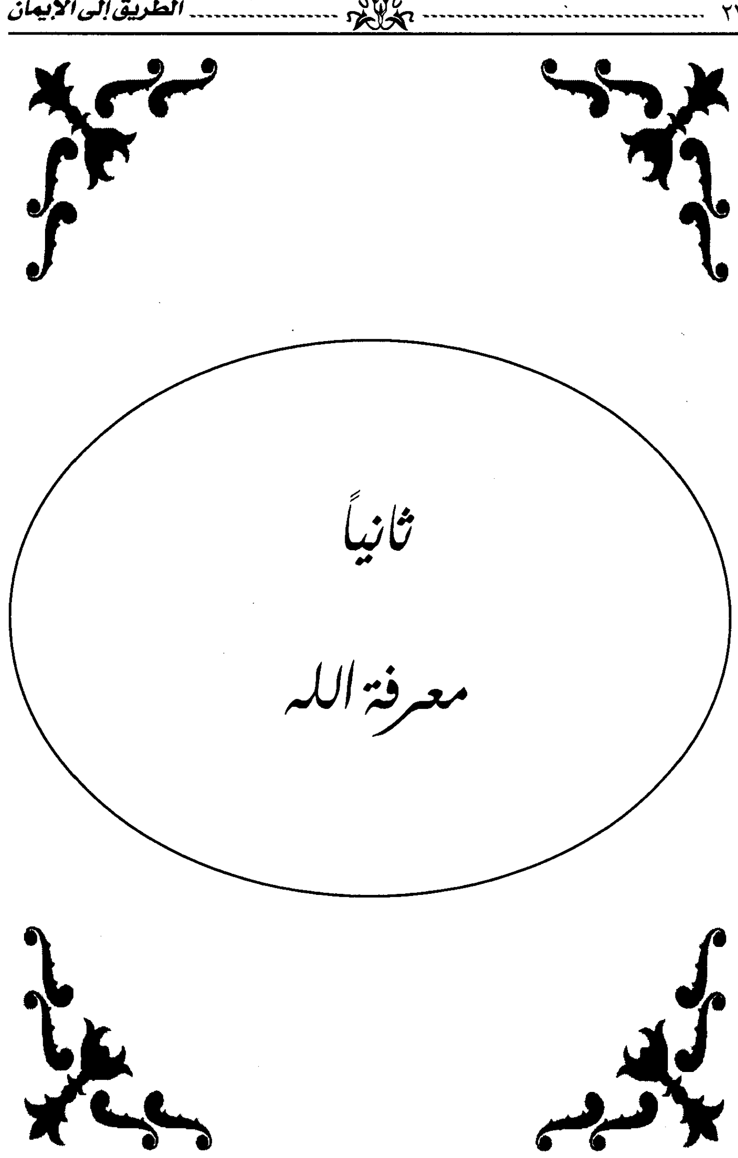
جعله الله يقرأ القرآن بقلبه:

إن الله نزل القرآن علىٰ أتقىٰ قلب رجل، علىٰ قلب محمد (ﷺ)؛ لذا كانت حياة القلوب معلقة بالقرآن، وأخبر (سبحانه) أنه نزل القرآن علىٰ قلب رسوله، فقال (تعالىٰ): ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [البقرة: ٩٧]، ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٤].

فإن اتبعت نور الإيمان، وشرح الله صدرك للإسلام، جعلك تقرأ القرآن بقلبك، فأنت تقرأ كلمات فيها وعيد، فتخاف أن يحيط بك العذاب، وفيه آيات رحمة ترجوها، وفيه نور تستشعره بقلبك، وبه إثبات النظر إلىٰ وجه الله، والشوق لهذا اللقاء. في الآخرة.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣].





ثانياً

معرفة الله

الله

وإن كنا نتحدث ـ في هذا الكتاب ـ عن وجود الله، والإيمان بالله وبما أمرنا أن نؤمن به، فيجب علينا أن نعلم أن «وجود الله (تعالى) من البداهات التي يدركها الإنسان بفطرته، وليس من مسائل العلوم المعقدة، ولا من حقائق التفكير العويصة.

ولولا أن شدة الظهور قد تلد الخفاء، واقتراب المسافة جدًا قد يعطل الرؤية، ما اختلف على ذلك مؤمن ولا مُلحد.

﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وقد جاءت الرسل لتصحيح فكرة الناس عن الألوهية، فإنهم وإن عرفوا الله بطبيعتهم إلا أنهم أخطأوا في الإشراك به، والفهم عنه، والبيئة الفاسدة خطر شديد على الفطرة ، فهي تمسخها وتشرد بها، وتخلف فيها من العلل ما يجعلها تعاف العذب وتسيغ الفج.

وذاك سر انصراف فريق من الناس عن الإيمان والصلاح، وقبولهم للكفر والشرك، مع منافاة ذلك لمنطق العقل وضرورات الفكر وأصل الخلقة.

وقد اقترنت حضارة الغرب ـ التي تسود العالم اليوم ـ بنزوع حاد إلى المماراة في وجود الله، والنظر إلى الأديان ـ جملة ـ نظرة تنقص، أو قبولها كمسكنات اجتماعية لأنصارها والعاطفين عليها.

ولا شك أن المحنة التي يعانيها العالم الآن أزمة روحية، منشؤها كفره بالمثل العليا التي جاء بها الدين من الحق والإنصاف ، والتسامح والإخاء.

فلا نجاة له مما يرتكس فيه إلا بالعودة إلى هذه المثل، يهتدي إليها بفطرته، كما يهتدي سبيلَه الجنينُ في ولادته، والفرخ من بيضته.

ومتى هُدي العالم إلى الفطرة، هُدي إلى الإسلام، فإن الإسلام هو دين الفطرة، ولا بأس من سوق طائفة من الدلائل التي تفتق للذهن الغافل منافذ يبصر بها ويلتفت لما وراءها:

إن الإنسان لم يخلق نفسه، ولم يخلق أولاده، ولم يخلق الأرض التي يدرج فوقها، ولا السماء التي يعيش تحتها.

والبشر الذين ادَّعوا الألوهية، لم يكلفوا أنفسهم مشقة ادِّعاء ذلك.

فمن المقطوع به أن وظيفة الخلق والإبراز من العدم ، لم ينتحلها لنفسه إنسان ولا حيوان ، ولا جماد.

ومن المقطوع به كذلك أن شيئًا لا يحدث من تلقاء نفسه، فلم يبق إلا الله، وقد قرر القرآن الكريم هذا الدليل:

﴿ **أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ** ﴾ [الطور: ٣٥ ـ ٣٦].

ويلفت أنظار العرب إلى مظاهر الإبداع في المجتمع الساذج الذي يحيَون فيه. ﴿ **أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ** ﴾ [الغاشية: ١٧ـ ٢٠].

ويسمى هذا الدليل: دليل الإبداع.

* لو دخل المرء دارًا، فوجد بها غرفة مهيأة للطعام، وأخرى للمنام، وأخرى للنظافة، وأخرى للضيافة... إلخ، لجَزم بأن هذا الترتيب لم يتم وحده، وأن هذا الإعداد النافع ـ لا بد ـ قد نشأ عن تقدير وحكمة، وأشرف عليه فاعل يعرف ما يفعل.

والناظر في الكون وآفاقه، والمادة وخصائصها، يعرف أنها محكومة بقوانين مضبوطة، شرحت الكثير منها علوم الطبيعة والكيمياء والنبات والحيوان والطب، وأفاد منها الناس أجمل الفوائد.

وما وصل إليه علم الإنسان من أسرار العالم، حاسم في إبعاد كل

شبهة توهم أنه وُجد كيفما اتفق. كلا! إن النظام الدقيق المختفي في طوايا الذرة، مُطَّرد فيما بين أفلاك السماء الرحبة من أبعاد:

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان: ٦١ ـ ٦٢].

﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ١٢ ـ ١٣][1].

ويجدر بكل عاقل، فطن، أن ينظر إلى علم العقيدة أولاً، ويبدأ بالعلم بربه وبما أمره به ربه أن يؤمن به، حتى يكون من الذين آمنوا بالغيب، أولئك الذين ذكرهم الله (عز وجل) في أوائل القرآن، ففي سورة البقرة قال (تعالى): ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ [٢ ،٣]، أي أن هذا القرآن الذي هو النور النازل من السماء ليهدي بني آدم، لا يهدي إلا المتقين، والمتقين هم الذين يؤمنون بالغيب، يؤمنون بالله، ويؤمنون باليوم الآخر، ويؤمنون بالملائكة، ويؤمنون بكل ما أخبر الله (عز وجل).

فهذا هو الإيمان، وهذه هي الحقيقة.

إن الناس في القديم والحديث تفرقوا وتشتتوا في إيمانهم، وفي اعتقادهم في وجود الله (عز وجل) وكانوا في ذلك طرائق قددًا، وأحزابًا متناحرة.

لذا؛ سوف نستعرض هذه القضية بالبحث والدراسة؛ حتى يتبين لنا الحق، وتتجلى لنا حقيقة هي أوضح من الشمس في أيام الصيف المحرقة.

أولاً : هناك من اعتقد أن الله (سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيرًا) عبارة عن رمز من الرموز، وأنه لا وجود حقيقي لله، ونفوا عنه (عز

(١) راجع: عقيدة المسلم للإمام الغزالي.

وجل) أن يكون قد خـلق، أو صنع أي شيء، وعللوا ذلك بأنهم لا يرونه، وأنهم لا يؤمنون إلا بما تراه أعـينهم، وهم فـي ذلك أشبـه بالذين لا عـقل لهم، فـإذا لم نؤمن إلا بما نراه، فكيف بك إذا ناداك أحد النـاس من خارج الغرفـة، أتستطيع أن تقـول: إنه غيـر موجود. بالطبـع لا. بل الصواب أن يُقـال: إن صوته دل عليـه، من ذلك يتـبين أثر سـماع الصـوت في الإيمان بوجود صاحبه.

وانظر إلى هـذا الرجل الكبيـر العامي الذي ليس عنـده كبيـر تنطع، ولكن عنده إيمان بربه ومعـرفة به، وهو يُعلِّم ابنه كـيف يستشعـر وجود الله (عز وجل):

قال الرجل لابنه: يا بني! ادخل هذه الغرفة، فدخل الابن، ثم ناداه، فاستجاب الابن لهـذا النداء، فقال له الأب: هل رأيتني؟ فقال: لا، ولكن صوتك دل عليك، فـقال الأب: هـكذا نحن، لا نرى الله، ولكن آثاره في الكون تدل عليه.

ومما يحكى أن مدرس من الذيـن لا يؤمنوا بالله قال للتلامـيذ: أترون هذه السبورة؟

فقالوا: نعم.

فقال لهم: إذن السبورة موجودة، ثم قال: أترون الكتب؟

فقالوا: نعم.

فقال لهم: إذن الكتب موجودة، ثم قال: أترون الله؟

فقالوا: لا.

فقال لهم: إذن الله غير موجود.

فقال تلميذ: أترون عقل المدرس؟

فقالوا: لا.

فقال التلميذ: إذن الأستاذ بغير عقل.

وإن الذين يقولون بهـذا القول ، يتناقضون في أقـوالهم؛ حيث إنهم يؤمنون بالجاذبية، وهـم لم يروها، ويؤمنون بالعقل، وهم لم يروه، ويؤمنوا بالمغناطيسية على الرغم من عـدم رؤيتهـا، لكنهم رأوا آثارها من انجـذاب الحديـد إلى الحديد، دون أن يروا الجـاذبية، فـهم بذلك يؤمنون بأشيـاء لم تدركها أبصارهم، ولكن آثارها هي التي دلت عليها.

وهنا يرد سوال: كيف نتـوصل إلى الطريق الذي به نكون مؤمنين حق الإيمان؟

إن هـذا الإيمان لا يتحـقق إلا بالنظر في آيات الله، وبالمعنى الآخـر: بالآثار التي تدل على وجوده، وهي:

* الكون.
* كلام الله.
* المعجزات والكرامات.

الكون[1]:

إن هـذا الكون مخلوق ، ولا يسـتطيع أحـد أن ينكر أن الكون غيـر موجود، حيث إن الكون مُشاهد ومحسوس.

فالسؤال: من خلق هذا الكون؟

أما غيرنا ـ نحن المسلمين ـ فسـوف يتصورون أمورًا، وهذه الأمور لا تخرج عن ثلاثة:

أولها : أنه من صنع الله.

ثانيها: أنه من صنع ذرات المادة وأجزائها، عن قصد وإرادة من المادة.

آخرها: أن يكون بطريق المصادفة. أي أن الجزيئات الكهربية التي منها تتألف ذرات هذا الكون وجدت مصادفة، وكان بعضها سالبًا والآخر موجبًا والأخير مـعتدلاً مصـادفة، وكان بين النواة والكهارب فـراغات لولاها لكان

(١) «الله جل جلاله» لسعيد حوى.

جرم كالأرض بحجم البيضة ،صادفة، والأرض بوضعها الحالي الصالح للحياة : قشرتها ، هواؤها، ماؤها، جبالها، حجمها، وجدت مصادفة، والإنسان: بعقله، وفكره، وتركيبه، وروحه، وأخلاقه، واستعداداته الخيالية والتصويرية والعملية، وإمكاناته للتسخير كل هذا وُجد مصادفة.

ونجد أننا أمام ثلاثة فروض:

الأول: أنه من صنع الله، والثاني: أنه من قبيل المصادفة، والثالث: أنه من صنع المادة عن عمد.

فأما الفرض القائل بأن الكون من صنع المادة عن عمد، فلا يقول به أحد، وأما الفرض القائل بأن الكون من صنع الله، فيقول به المؤمنون، وأما الفرض القائل بأن الكون حدث مصادفة فهو قول الماديون، وإليك الرد عليهم:

نضرب مثالاً: خذ لوحًا ، واغرز فيه إبرة، وضع في ثقبها إبرة أخرى، وقل لي: إذا رأى إنسان هاتين الإبرتين، وسأل: كيف أدخلت الثانية في ثقب الأولى، ثم أخبَره إنسان معروف بالصدق أن الذي أدخلها رجل وضعها بيده في ثقب الإبرة الأولى، ثم أخبره إنسان آخر معروف بالصدق ـ أيضًا ـ أن الذي ألقاها صبي صغير ولد من بطن أمه أعمى، فوقعت في الثقب بطريق المصادفة، فأي الخبرين يُصَدَّق؟

لا ريب أنه يميل إلى تصديق الخبر الأول، ولكن أمام صدق الرجلين يرى أن المصادفة ممكنة، فلا يجزم بترجيح أحد الخبرين على الآخر، ولكن إذا ما رأى الرجل أن هناك عشر إبر، كل واحدة منها مغروزة في ثقب التي تليها، فهل يبقى ترجيح فكرة القصد على وضعه السابق؟ بالطبع لا.

وكلما ازداد الأمر تعقيدًا بعُدت فكرة المصادفة، وأصبحت مستحيلة، فلو أننا افترضنا ـ مثلاً ـ أن بعض الدول تنفذ حكم الإعدام عن طريق تناول سمًا معينًا، وأن هذا السم له مادة تُبطل عمله، فإذا أقيم التنفيذ على ألف شخص ـ مثلاً ـ من أماكن متفرقة، بنفس الطريقة ـ وهي السم ـ وقال الذين

تولوا الأمر: إن هناك رجلان كانا قد تعاطى هذا المادة المبطلة للسم عن طريق الصدفة، وقد حدث أن السَّمَّ لم يؤثر فيهما، قلنا: ممكن، أما إذا قالوا: أن الألف شخص كلهم أجمعون ـ على بُعد المسافات بينهم، واختلاف بلادهم ـ قد تعاطوا هذه المادة عن طريق الصدفة، فهذا بعيد جدًا عن التصديق.

من ذلك، يعلم العاقل أن الصدفة تحدث في أمور متباعدة، ونادرة، أما إنها تحدث باستمرار وفي وقت ثابت، تأكد لنا يقينًا أنها من فعل مؤثر آخر عليها.

من هنا ننظر إلى الكون[1]:

١ ـ لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هي عليه بمقدار بضع أقدام؛ لامتص ثاني أكسيد الكربون والأكسجين، ولما أمكن وجود حياة.

٢ ـ ولو كان الهواء أقل ارتفاعًا عما هو عليه؛ فإن بعض الشهب التي تحترق بالملايين كل يوم في الهواء الخارجي، كانت تضرب في جميع أجزاء الكرة الأرضية، وكان في إمكانها أن تشعل كل شيء قابل للاحتراق.

٣ ـ لو أن شمسنا أعطت نصف إشعاعها الحالي، لكنا تجمدنا، ولو أنها زادت بمقدار النصف، لكنا رمادًا منذ زمن بعيد.

٤ ـ لو زاد بُعد القمر على بُعده الحالي؛ لكان المد يبلغ من القوة بحيث إن جميع الأراضي تُغمر مرتين في اليوم بماء متدفق يزيح الجبال نفسها.

٥ ـ لو كان الأكسجين بنسبة ٥٠٪ أو أكثر من الهواء بدلاً من ٢١٪ فإن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال، لدرجة أن أول شرارة في البرق تصيب شجرة لا بد أن تلهب الغابة كلها.

ولو كان بنسبة ١٠٪ لتعذر أن تكون الحياة على ما هي عليه اليوم.

---

(١) «العلم يدعو إلى الإيمان».

٦ ـ ولولا المطر؛ لكانت الأرض صحراء لا تقوم عليها حياة.

٧ ـ ولو كانت مياه المحيطات عزبة لتعفنت.

٨ ـ ولو كان محور الأرض معتدلاً بدل هـذا الميل الحالي الذي مقداره ٢٣ْ مع سكون الأرض؛ لتـجـمعت قطرات الميـاه المتـبخـرة من المحـيطات والبحار، ونزلت في مكانين محـدودين في الشمال والجنوب، ولظل الصيف دائمًا ، والشتاء دائمًا إلى الأبد.

٩ ـ ولولا الجبـال؛ لتناثرت الأرض، ولما كان لهـا مثل هـذه القـشرة الصالحة للحيـاة، فإن كان هـذا نقطة في بحر العالم المحـيط بنا، فهل هـذا من قبيل الصدفة، أم أن الله (عز وجل) هو الخالق، وهو المدبر لكل ذلك؟!

بهـذا نستطيع أن نقول: إن الله هو خالق الكون، وهو الإلـه الحق.

إن كـان الله هو الذي خلق العـالم، فهل يصح أن يكون الإله أكـثـر من واحد؟

القول بالتثنية يُلزم بوجود صفة مميزة بين الاثنين؛ لأن التساوي التام في جميع الوجوه باطل، ولا يصح بالتصور، إلا إذا انطبق الأول على الثاني تمام الانطباق، فيبـقى في النتيجة كائن واحد، ولما انعدمت الصفـة المميزة انعدم التمييـز، فإن قال مُكابر: بإمكاننا التمييز بين اثنين حـال التساوي التام، قلنا له: أقمت على نفسك الحجة حينما مـيزت وما ميزت إلا بإدراك صفة مميزة، ووجود صـفة مميزة يبطل التـساوي التـام، وإذا بطل التساوي التـام؛ حصل التفاضل بين الاثنين، فسقط المفضول، وبقي واحد.

قال ابن جرير الطبري:

إذا كانا اثنين، لم يخل كل واحد منهمـا من أن يكون قوي أو عاجز، فإن كانا قويين، أو عاجزين، فالقويان كل منهما عاجز أمام الآخر، وإن كانا عاجـزين، فكلاهما ليس بـإلـه، وإن كان أحـدهما قـوي والآخر عـاجز؛ فالقوي هو الإلـه، لذلك لا بد من أن يكون للعالم إلـه واحد هو: الله.

من الذي وضع مبدأ التثليث؟

إن النصارى ليسوا هم أول من قال بالتثليث، ولكنهم قلدوا من قبلهم، فهم قلدوا الفلاسفة الذين كانوا في عصرهم، ولكن لهؤلاء الفلاسفة سلف في هذا الادعاء الكاذب «فكل هذا قال به الوثنيون السابقون للنصرانية عن آلهتهم، فكل معتقدات النصرانية تجد لها نظيرًا لدى الوثنيين سواء بسواء وصدق الله إذ يقول: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ**﴾ [التوبة: ٣٠].

بل إن «إيزيس» (أم الإله) التي كانت تكوِّن مع أوزيريس وحورس ثالوثًا معبودًا عند المصريين، ومع سرابيس وهاربوقراطيس، تكوِّن ثالوثًا معبودًا عند البطالمة... كانت هي الباب الذي دلف منه النصارى في هدوء إلى العذراء مريم، فكانت صورها دائمًا في صورة الأم الشابة، ذات الثياب المحتشمة، والملامح الرقيقة الخيرة... والتي تحمل أحيانًا بين ذراعيها طفلَها.

فقد انتقل عابدوها إلى عبادة أم أخرى هي مريم «أم المسيح» بل إن تماثيل عديدة معروفة لإيزيس أصبحت تُستخدَم فيما بعد لتمثيل العذراء «مريم»! [1].

ففكرة التثليث قديمة جدًا، فظهرت في عهد الفراعنة، وتشبعتها أذهان المأفونين عبر الزمان، فكانت تظهر وتموت، وتظهر وتموت، وتارة تأخذ دورها وتنتهي، إلى أن أصبحت عقيدة النصارى الثابتة في الوقت الحالي، فكما قال (تعالى) عن هؤلاء النصارى الذين ادعوا أن المسيح هو ابن الله، والذين ادعوا أن الآلهة ثلاثة: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ**﴾ [التوبة: ٣٠].

فهذه نبذة مختصرة عن فكرة التثليث.

---

(١) قصة مريم للشيخ الأخ الفاضل مجدي قاسم حفظه الله.

ومما سبق يتبين لنا أن الله (عز وجل) هو المستحق الوحيد للعبودية، «**والعبودية مدارها على قاعدتين هما أصلها:**

* حب كامل.
* ذل تام.

ويتولدان من مشاهدة تمام المنة التي تورث المحبة، ومطالعة عيب النفس والعمل، تلك المطالعة التي تورث الذل التام.

فاستقامة القلب بشيئين:

أحدهما: أن تكون محبة الله (تعالى) تتقدم عنده على جميع المحاب، فإذا تعارض حب الله (تعالى) وحب غيره؛ سبق حبُّ الله (تعالى) حب ما سواه، فرتب على ذلك مقتضاه.

الآخر: تعظيم الأمر والنهي، وهو ناشئ عن تعظيم الآمر الناهي.

دلائل تعظيم الأمر والنهي:

١ - أن يغضب لله (عز وجل) إذا انتهكت محارمه.

٢ - أن يجد في قلبه حزنًا وكسرة إذا عُصي الله (تعالى) في أرضه.

٣ - ألا يسترسل مع الرخصة.

٤ - ألا يحمل الأمر على علة تضعف الانقياد والتسليم لأمر الله (عز وجل)، وسواء في ذلك أن تظهر العلة أو لم تظهر[1].

واليك بيان ما سبق:

١ - أن يغضب لله (عز وجل) إذا انتهكت محارمه، وهذا قد أمرنا الله (تعالى) به في كتابه العزيز، أمرنا بأن نغضب إذا انتهكت محارم الله، وأمرنا إذا ما غضبنا لأنفسنا أن نغفر.

قال (تعالى): ﴿**وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ**

(١) «الوابل الصيب» لابن قيم الجوزية.

اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة] فهـذا القطع للأيدي من الغضب لله، وذلك لأن الله (عز وجل) وضع شريعته لحماية بني الإنسان، فمن خالف وسرق حق عليه أن تقطع يده التي سرق بها، وهذا السارق نقطع له يده، وذلك لأننا نغضب لله (عز وجل)، ونطيع أمر الله (تعالىٰ) فيه، أما إذا ما غضب الإنسان لنفسه فقد قال (تعالىٰ): ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورىٰ: ٣٧]. أي: يا أيها الإنسان إذا غضبت من أخيك، فاغفر له خير لك وأتقىٰ لله (عز وجل).

٢ ـ أن يجد الإنسان في قلبه حزنًا وكسرة إذا عُصي الله (تعالىٰ) في أرضه، وذلك مصداقًا لقول الله (عز وجل) الذي أنزله من السماء تخفيفًا علىٰ رسوله (ﷺ): ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]؛ وذلك لأن الرسول (ﷺ) من شدة شفقته علىٰ الناس، وخوفه عليهم من أن يدخلوا النار، وشدة حزنه أن يراهم يأكلون ويتمتعون بما أنعم الله عليهم، وهم يسجدون للأصنام، ويعصون الله ليل نهار، فكان (ﷺ) حزينًا لأنهم يعصون الله، ولأن عاقبتهم إلىٰ النار، فهذا الحزن هو الذي كان يشعر به محمد (ﷺ)، ويجب علىٰ كل مؤمن صادق الإيمان أن يحزن إذا رأىٰ معصية، وأن يفرح إذا وجد الناس علىٰ الطاعة والخير.

٣ ـ ألا يسترسل مع الرخصة.

أي لا يأخذ بالرخص في كل حال، سواء كان ذلك في ضرورة أو في غير ضرورة، ذلك أن الرخص جعلها الله (عز وجل) إذا وجدت مشقة؛ تخفيفًا من ربنا علينا، فإن وجدت الضرورة، لنا أن نأخذ بها، وإن لم توجد الضرورة، فلا نترك ما أمرنا به.

مثال ذلك: رجل يسافر كل يوم لطبيعة عمله، فيُفطر في رمضان كل يوم، وذلك مع عدم وجود مشقة عليه، وأيضًا يجمع الصلوات، ويقصر منها، لرخصة السفر، ويتبع في ذلك كل رخص الدين، فتجده ليس عنده

ضرورة، ولـكنه يأخذ بكل رخص الدين؛ ليستـريح بعض الشيء، فهـذا مخطئ.

٤ ـ ألا يحمل الأمر على علة تضعف الانقـياد والتسليم لأمر الله (عز وجل)، وسواء في ذلك أن تظهر العلة أو لم تظهر.

من ذلك: إذا قلت لأحد الناس إن رسول الله (ﷺ) أمرك بأمر معين، فيقول: هل هـذا الأمر واجب، أم أنه مستحب، فإن كان واجب فعلته، وإن كان مستـحبًا لا أفعله أبدًا، فهل إن كان رسـول الله (ﷺ) بيننا وأمره بهـذا الأمر، هل يقول له: هل أمرك هـذا واجب أم أنه مسـتحب، فإن كان واجبًا علي فعلتـه، وإن كان مستحـبًا لا أفعله، فالأمـر دائمًا فيه الخـير، حيث إن الشريعة جاءت لخير الدنيا والآخر معًا.

أما إذا وقع الإنسان في محـذور، أو ارتكب إثمًا، وأراد أن يعرف إن كان الذي وقع فيـه واجبًا عليه فعله، أم غيـر واجب، وذلك لما يترتب عليه من أحكام، فلا حرج في ذلك، وكذا من أراد أن يطلب العلم، ويعلم أوامر الشرع، ويعلم المستحب والواجب، والحـرام، والمكروه، فهـذا لا حرج عليه أيضًا، أما ما نخصـه هنا بالذكر ذلك الذي يقول: أريد أن أعرف هل أمرني ربي بهـذا الأمر على سـبيل الوجوب، أم على الاستحباب، فـإن كان واجبًا فعلته، وإن كان مستحبًـا لا أفعله، وكذلك النهي، إن كان حرامًا لا أفعله، وإن كان مكروهًا فعلته.

كيف نحب الله (عز وجل)؟

إن المحبـة أمر متـعلق بالقلب، فالقلب هو الـذي يصدر منه الحب أو عدمه، ولكن هناك أفعال إذا فعلها العبدُ كانت حائلاً بينه وبين حب الله (عز وجل)، وقد حدد القرآن هـذه الأفعال بأنها:

* الجهل. * الكبر. * الظلم[1].

(١) «الله جل جلاله» سعيد حوى.

* الغفلة . * الإجرام . * التردد في قبول الحق .

● ● ●

١ ـ الجهل:

وقال (تعالىٰ) عن الجهلة: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١١٨]. أي: قالوا بجهلهم: لا نؤمن حتىٰ يكلمنا الله، أو تأتينا آية منه، وهم بذلك جهلة، محجوبون عن حب ربهم والعلم به.

٢ ـ الكبر:

قال (تعالىٰ): ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦]. فهـٰؤلاء بتكبرهم صرفهم الله عن آياته، وعن معرفته، وعن محبته.

٣ ـ الظلم:

قال (تعالىٰ): ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الإِسْلامِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الصف: ٧].

فهـٰؤلاء الذين ظلموا أنفسهم لا يهديهم الله لطريقه، ولا لمحبته، ولا لطاعته.

٤ ـ الغفلة:

قال (تعالىٰ): ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

فالغافلون عن ذكر الله (تعالىٰ)، وعن التفكر في آيات الله، وعن إعمال عقولهم في البحث عن محبة الله، وعن عبادته، وعن طاعته، فهـٰؤلاء لا يتفكرون؛ لذلك صرفهم الله عن حبه.

٥ ـ الإجرام:

قال (تعالىٰ): ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ

خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ [الحجر: ١٢ ، ١٣].

٦- التردد في قبول الحق:

قال (تعالى): ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

فإذا أردنا أن نصل إلى محبة الله (عز وجل) فيجب علينا أولاً أن نخرج هذه الأشياء التي ذكرناها من قلوبنا، ثم نضع مكانها الطاعة، وإذا أردنا أن يصل الحب إلى قلوبنا وجب علينا أن نعرف أولاً: لماذا نحب؟ ولماذا نكره؟ فإذا عرفنا لماذا نحب، عرفنا أنه لا محبوب إلا الله وحده.

١ - أول ما يحب الإنسان: نفسه، وذلك واضح جلي، فإن كل إنسان يُريد لنفسه الكمال، ويسعى جاهدًا إلى أن يحقق كل ما يراه من آمال، وأحلام، وذلك فرع من أصل ثابت وهو: حب الذات.

ومن ذلك تجد الرجل يحب أبناءه؛ لأن الولد هو امتداد للأب، ويعطيه الشعور بامتداد العمر؛ لذا يحب بعض الرجال الذكور؛ لأنهم يحملون أسماءهم، وتتوالى الأجيال، وذلك من حبه لنفسه، وطمعًا في خلود اسمه في الحياة، ويكره أن يكون له البنات فقط لأنهم لا يخلدون اسمه في هذه الحياة التي يتعلق بها.

وكذا يحب الرجل المال الذي به يستطيع أن يذلل جُل العقبات التي تقابله، ويحب السلطان، لأن ذلك يشعره بالأمان، والفخر للنفس، وكذلك يحب الرجل كمال نفسه وأعضائه، فلا يحب أن يكون مبتور الساق أو اليد، ولا يحب أن يكون به تشوهات، أو عيوب.

فإن كان ذلك كذلك، وإن كان الرجل يحب أكثر ما يحب نفسه فمن الذي خلق له هذه النفس؟! إنه الله، ومن الذي جعل له الأعضاء؟! إنه الله، ومن الذي مهد له الأرض وجهزها؟! إنه الله، ومن الذي يرزقه المال والأولاد والسكن والزوجة؟! إنه الله.

فإن كنت تحب نفسك حقًا، كـان لزامًا عليك أن تحب الله أكثر من أي شيء؛ لأنه هو الذي وهبك هذه النفس التي أنت فخور بها بين الناس.

٢ ـ ومما يحب الإنسـان ـ أيضًا ـ الإحسـان والمحسنين، حتى لو لم يصل إليه إحسانهم، فإنك إذا سمعت أن هناك رجل عادل ، محسن، يُعطي الفقراء، وينصر المظلوم؟! وينفق على الناس بغير حساب؛ أحببته، فإن كان هذا نوع من الحب، فمن أعدل من الله؟! ومن الذي ينصر المظلوم، إنه الله، ومن الذي يبسط الرزق؟ إنه الله، ومن الذي يُساعد المحتاج؟! إنه الله. فإن كان هناك محبة لكانت لله (عز وجل) وحده.

٣ ـ ومن دواعي الحب: الجمال، حيث يجد الرجل في قلبه ميل وحب الأشياء الجميلة، مثل الأشجار الجميلة، والأنهار الجميلة، وكل شيء جميل في الكون، فإن كان الجمال من دواعي المحبة؛ فمن أجمل من الله؟ (عز وجل) ومن أكمل من الله؟ (عز وجل) والجواب: لا شيء.

٤ ـ ومن أسباب الحب: الميل، والراحة النفسية، فإن وجد الرجل رجلاً آخر يجد معه الراحة، ويتحدث إليه، ويعطيه النصيحة الصحيحة، أحبه، فأخبرني : ألا تستريح في الصلاة؟ عندما تناجي ربك، ألا تستريح عند قراءة القرآن؟ عندما يُرشدك ربك إلى الخير والحق.

وبعد...

فالقلوب ثلاثة[1]:

١ ـ قلب خالٍ من الإيمان وجميع الخير:

فذلك قلب مظلم، قد استراح الشيطان من إلقاء الوساوس إليه؛ لأنه قد اتخذه بيتًا ووطنًا، وتحكم فيه بما يريد ، وتمكن منه غاية التمكن.

٢ ـ قلب استنار بنور الإيمان، وعليه ظلمة الشهوات:

فللشيطان هنالك إقبال وإدبار، ومجالات ومطامع، فالحرب دول وسجال.

(١) «الوابل الصيب» لابن قيم الجوزية.

٣ ـ قلب محشو بالإيمان:

استنار بنور الإيمان، وانقشعت عنه حجب الشهوات، وأقلعت عنه تلك الظلمات، فلنوره في صدره إشراق، ولذلك الإشراق إيقاد، لو دنا منه الوسواس؛ احترق به.

أما الأسباب الجالبة للمحبة[1]:

فهي عشرة:

أحدها: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به.

كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبد ويشرحه، ليتفهم مراد صاحبه منه.

الثاني: التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض:

فإنها توصله إلى درجة المحبوبية بعد المحبة.

الثالث: دوام ذكره على كل حال:

باللسان والقلب، والعمل والحال، فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر.

الرابع: إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى:

والتسنم [2] إلى محابه، وإن صعب المرتقى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها:

وتقلبه في رياض هذه المعرفة ومبادئها، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، أحبه لا محالة، ولهذا كانت المعطلة والفرعونية والجهمية قطاع الطريق على القلوب بينها وبين الوصول إلى المحبوب.

السادس: مشاهدة بره وإحسانه وآلائه:

ونعمه الباطنة والظاهرة، فإنها داعية إلى محبته.

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٣٢).

(٢) تسنم البعير: ركب سنامه، وتسنم المجد: علاه.

السابع: انكسار القلب بكليته بين يدي الله (تعالى):

وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات.

الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهي:

لمناجاته وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه، ثم خَتْم ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين:

والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقى أطايب الثمر، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعلمت أن فيه مزيدًا لحالك، ومنفعة لغيرك.

العاشرة: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله (عز وجل):

فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبون إلى منازل المحبة. ودخلوا على الحبيب، ومِلاك ذلك كله أمران:

* استعداد الروح لهذا الشأن.

* وانفتاح عين البصيرة. اهـ

لذلك؛ كان لزامًا علينا تطهير القلب من الشهوات، وإفراد الله بالمحبة، وأن نوحد الله كما أراد الله، ولكي يتم الإيمان بالله، فلا بد أن تتحقق أربعة أمور:

١ ـ الإيمان بوجوده (سبحانه وتعالى).

٢ ـ الإيمان بربوبيته، أي: الانفراد بالربوبية.

٣ ـ الإيمان بانفراده بالألوهية.

٤ ـ والإيمان بأسمائه وصفاته.

وأما الإيمان بوجوده، فقد تحدثنا عنها في الورقات السابقة.

الإيمان بالربوبية:

إن الإيمان بالربوبية هو الاعتراف والإقرار بالقلب والجوارح بأن الله

(عــز وجل) هو الخــالق، وهو المالك، وهــو المدبر، ولا يكون ذلك بإقــرار اللسان فقط، أي: بأن يتلفظ الإنســان بهذه الكلمات، وإنما الإقرار والإيمان هو أن يصدق قلبه، وينطق لســانه بما يصدقه قلبه وجوارحــه تكون تبعًا ـ في ذلك ـ لقلبه وتصــديقه، والإقرار بالخلــق لله (تعالى) أي: بأن كل شيء في الكون ـ نعلمــه أو لا نعلمه ـ هو من خلق الله، وليس لأحــد من الناس أو الملائكة أو النبيين أو غيــرهم أن يخلق شيئًا، وقد ضل عن هذا الفــهم كثير من الناس، فــمنهم من ادعى أن الظلمة والنور يخلقــان، ومنهم من ظن أن عيــسى ابن مــريم يخلق، ومنهم من جعل الــعزير يخلق، ومنهم من جــعل الصدفة تخلق، ومنهم من نسب الخلق للمــلائكة، وكل هذا ضلال، وأهل الحق يعلمون أن الله وحده هو الخالق.

وأما إفراده بالملك، فهذا هو الملــك المطلق، الذي لا ينازعه فيه أحد، أما أن يمتلك الرجل بيتًا في الدنيا، فــهذا لا ينافي أن الملك الحقيقي لله (عز وجل).

وأما إفراده بالتدبيــر، فلنعلم أن كل شيء بقدر الله (عز وجل) ، وهو الذي يدبر، فــإن حدث لــك شيء فاعلم أنه مــن قدر الله وتدبيــره، وذلك يبعث في النفس الرضا والاطمئــنان، حيث يعلم الإنسان أن الله (عز وجل) هو الذي دبر ذلك الأمر، فنعم المولى ربنا، ونعم التدبير من ربنا، لذلك كان أمر المؤمن كله خير، فإن أصابه نعمة شكر الله عليها، ناله ثواب وأجر كبير، وإن أصابه ضــراء علم أنها من عند الله، فــصبــر عليها، فــينال بذلك أعلى الدرجات.

الإيمان بالألوهية:

وهو إفراد الله (عــز وجل) بالعبــادة، فلا يســجد لصنم، ولا يســجد لحجر، ولا يعبد كوكبًا، ولا يعبد نبيًا، ولا ملكًا، ولا ظلمة ولا نورًا.

الإيمان بالأسماء والصفات:

وهو العلم الحقيقي بكل اسم لله (عــز وجل) بمعرفة معناه، ودلالاته،

وكيف نعبد الله (سبحانه) بهذا الاسم، وعلى الرغم من ذلك نجد أن أكثر الناس من المسلمين اليوم لا يعلمون أسماء الله (عز وجل)، وإن حفظها، فإنه لا يعلم معناها، ولا يعلم كيف يعبد الله بها.

● ● ●

الله هو الهادي:

قال (تعالى): ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

إن الله (عز وجل) هو الذي خلق الكون؛ لذا فقد كانت صفة الهداية، ملازمة لصفة الخلق، فهو خلق الخلائق، ثم هداهم إلى ما ينفعهم في حياتهم وآخرتهم.

فهذا ثعبان الماء، متى اكتمل نموه، هاجر من مختلف البرك والأنهار، قاطعا آلاف الأميال في المحيط، قاصدًا إلى الأعماق السحيقة جنوب «برمودة» حيث ملتقى ثعابين الماء من كل أنحاء العالم، وهناك يبيض ويموت.

أما صغارها تلك التي لا تملك وسيلة تتعرف بها على أي شيء، سوى أنها في مياه قفرة، فإنها تعود أدراجها، وتجد طريقها إلى الشاطيء الذي جاءت منه أمهاتها، ومن ثم إلى كل نهر أو بحيرة أو بركة صغيرة، ولذا يظل كل جسم في الماء آهلا بثعابين البحار، ولم يحدث قط أن صيد ثعبان ماء أمريكي في المياه الأوربية أو العكس[1].

وخطر لعالم أمريكي أن يستفرخ البيض، دون حضانة الدجاج، بأن يضع البيض في نفس الحرارة التي نالها البيض من الدجاجة الحاضنة له، فلما جمع البيض ووضعه في جهاز التفريخ نصحه فلاح أن يقلب البيض؟ إذ إنه رأى الدجاجة تفعل ذلك، فسخر منه العالم، وأفهمه أن الدجاجة، إنما

---

(١) سعيد حوى. والعلم يدعو إلى الإيمان.

تقلب البيض لتعطي الجزء السفلي منه حرارة جسمها الذي حرمه، أما هو فقد أحاط البيض بجهاز يشع حرارة ثابتة لكل أجزاء البيضة، واستمر العالم في عمله حتى جاء دور الفقس، وفات ميعاده، ولم تفقس بيضة واحدة، وأعاد التجربة، وقد استمع إلى نصيحة الفلاح، أو بالأحرى إلى تقليد الدجاجة، فصار يقلب البيض حتى إذا واتى ميعاد الفقس خرجت الفراريخ، وآخر تحليل علمي لتقليب البيض، أن الفرخ حينما يخلق في البيضة تترسب المواد الغذائية في الجزء الأسفل من جسمه، إذا بقي بدون تحريك أوعيته، ولذلك فإن الدجاجة لا تقلب البيض في اليوم الأول والأخير[1].

كيف يهدي الله الإنسان

«الهداية هي: البيان والدلالة، ثم التوفيق والإلهام، وهو بعد البيان والدلالة.

مراتب الهداية:

الهداية تنقسم إلى هدايتين مستقلتين هما:

١ ـ هداية الإرشاد وهي التي جاء بها الرسل، وهي بمعنى الدلالة، أي الإرشاد إلى الطريق الصحيح، وإلى معرفة الله حق المعرفة، وهذه الهداية قاصرة على الإخبار والنصح والإرشاد، وإزالة الشبهات، وأخبر عنها القرآن في قوله (تعالى): ﴿**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ**﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣].

٢- هداية القلب وتثبيته حتى الوفاة، وهذه الهداية انفرد بها الله (عز وجل) حيث إن الله لا يعطي هذه الهداية، إلا لمن أحب، ويمنعها من يفعلون المعاصي، وهذه الهداية هي التي أمرنا الله (عز وجل) أن نسأله إياها في قوله (تعالى): ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ [الفاتحة].

---

(١) سعيد حوى. والعلم يدعو إلى الإيمان.

هل تختص الهداية بأحد دون أحد؟

إن الله الهادي العظيم قد أعطى الهداية للناس كافة، وهي هداية الإرشاد، حيث خصهم جميعا بإرسال الرسل، كما قال تعالى: ﴿**وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ [البقرة: ٥٣]. فأرسل الله موسى لقومه بكتاب وآيات، وما ذاك إلا ليهتدوا، فهذه هداية الإرشاد، ثم تجد الناس في مثل هذا الإرشاد ينقسمون إلى قسمين: ﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ [البقرة: ١٢١]. فهكذا يتلقى الناس جميعا الهدي، ولكن منهم من يتبع الهدي، ومنهم من يكفر به، فالذين آمنوا واتبعوا الهدى أولئك ﴿**آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى**﴾ [الكهف: ١٣]. فبذلك تكون الهداية الأولى وهي إرشاد الرسل إلى الناس. فمن تقبلها بقبول حسن، فهؤلاء الذين ينطبق عليهم الهدى، ويدخلون في الهداية الثانية، وهي زيادة الهدى، ثم ﴿**وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا**﴾ [الكهف: ١٤].

ومن الناس من يكره الهدى، ويحب العمى ﴿**وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى**﴾ [فصلت: ١٧].

ما ثمرات الهدى؟

إن من أجل ثمرات الهدى هي: الرضا بقضاء الله، وتعلق القلب بالله، فكل أمر ونهي به من المشقة على النفس، الشيء الذي يجعل النفس، تنتهي عما تحب، أو تفعل ما لا تحب، وبمعنى آخر: قد يكون المرء محبًا للنساء، ولكن أمر بغض البصر، فالغض هنا به مشقة على النفس، وكذلك يحب المرء الحياة، وأمر بالجهاد، وبذل النفس، وهذا أيضا به مشقة على النفس ولكن من سار في طريق الهداية، وجد أن الله ييسر له كل شيء ﴿**وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ**﴾ [البقرة: ١٤٣]. وقد حدد الله الطريق إلى الهدى، فقال: ﴿**وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [آل عمران: ١٠١].

مراتب الهداية الخاصة والعامة[1]:

١- تكليم الله لعبده يقظة بلا وساطة:

وهذه أعلى مراتبها، كما كلم موسى بن عمران، قال (تعالى): ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

٢- الوحي المختص بالأنبياء:

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ﴾ [النساء: ١٦٣].

٣- إرسال الملائكة إلى الرسل من البشر:

فهذه مرتبة خاصة بالأنبياء، ولا تكون لغيرهم.

٤- مرتبة التحدث:

وهذه دون مرتبة الوحي الخاص، وتكون دون مرتبة الصديقين، كما كانت لعمر بن الخطاب، كما قال النبي ﷺ «**إنه كان في الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن في هذه الأمة فعمر بن الخطاب**»[2].

والمحدث: هو الذي يحدث في سره وقلبه بالشيء، فيكون كما يحدث به.

والصديق: أكمل من المحدث، لأنه استغنى بكمال صديقيته، ومتابعته عن التحديث والإلهام والكشف، فإنه قد سلم قلبه كله وسره وظاهره وباطنه للرسول ﷺ، فاستغنى بها عن التحديث.

٥- مرتبة الإفهام:

قال تعالى: ﴿**وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا**﴾ [الأنبياء: ٧٨ - ٧٩]. فالفهم عن الله ورسوله ﷺ عنوان الصديقية، ومنشور الولاية النبوية، وفيه تفاوت مراتب العلماء، حتى عد ألف بواحد.

---

(١) مدارج السالكين. (٢) خرجه البخاري (٣٦٨٩).

٦- مرتبة البيان العام:

وهو تبين الحق، وتميزه من الباطل بأدلته وشواهده وأعلامه، بحيث يصير مشهودًا للقلب، كشهود العين للمرئيات، هذه المرتبة هي حجة الله على خلقه، التي لا يعذب أحدا، ولا يضله إلا بعد وصوله إليها، قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ**﴾ [التوبة: ١١٥]. فهذا الإضلال عقوبة منه لهم، حين بين لهم، فلم يقبلوا ما بينه لهم، ولم يعملوا به، فعاقبهم بأن أضلهم عن الهدى، وما أضل الله (سبحانه) أحدًا قط إلا بعد هذا البيان.

وإذا عرفت هذا، عرفت سر القَدَر، وزالت عنك شكوك كثيرة، وشبهات في هذا الباب، وعلمت حكمة الله في إضلال من يضله من عباده، والقرآن يصرح بهذا في غير موضع، كقوله: ﴿**فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ**﴾ [الصف: ٥].

٧- البيان الخاص:

وهو المستلزم للهداية الخاصة، وهو بيان تقارنه العناية والتوفيق والاجتباء، وقطع أسباب الخذلان وموادها عن القلب، فلم تتخلف عنه الهداية البتة، قال تعالى: ﴿**إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ**﴾ [القصص: ٥٦]. فالبيان الأول شرط، وهذا موجب.

٨- مرتبة الإسماع:

قال تعالى: ﴿**وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ**﴾ [الأنفال: ٢٣].

إن الكلام له لفظ ومعنى، وله نسبة إلى الأذن والقلب وتعلق بهما، فسماع الألفاظ هو حق الأذن، وسماع حقيقة معناه ومقصوده حظ القلب، فإنه (سبحانه) نفى عن الكفار سماع المقصود والمراد الذي هو حظ القلب، وأثبت لهم سماع الألفاظ، الذي هو حظ الأذن في قوله: ﴿**مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ**﴾ [الأنبياء: ٢-٣].

٩- الإلهام:

قال تعالى: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾ [الشمس:٧-٨] والإلهام عام للمؤمنين بحسب إيمانهم، فكل مؤمن قد ألهمه الله رشده الذي حصل له به الإيمان.

١٠- الرؤيا الصادقة:

وهي من أجزاء النبوة، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة**»[١].

والرؤيا ثلاثة:

١- رؤيا من الله.

٢- رؤيا من الشيطان.

٣- رؤيا مما يحدث به الرجل نفسه في اليقظة، فيراه في النوم.

والذي هو من أسباب الهداية: هو الرؤيا التي من الله خاصة.

وبعد... اعلم أن آيات الله هدى، ولكنها لا تهدي إلا المتقين كما قال تعالى: ﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**﴾ [البقرة:٢].

مقابلة الناس لهذه الهداية:

إن الله (عز وجل) قد استنهض همم الناس، وأوضح لهم المسالك التي يسلكونها؛ لينالوا رضاه، فأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب؛ وأخرجهم من الظلمات إلى النور، وما أرسل الرسل إلا ليرشدهم ويهديهم، ولم يختص بذلك قومًا دون قوم، ولا غني دون فقير، ولا سيد دون مسود، ولكن المعاصي والآثام تستهوي القلوب، وتجتلب الألباب، ويحمل الرسل على عواتقهم رسالة النصح والإرشاد، وتتأبى[٢] قلوب الظالمين عن الحق، ويتأثروا[٣] الشيطان في خطواته، ويتركوا قول الرسل، ويتمسكوا بسفاسف الأمور ودناياها.

(١) خرجه البخاري (٦٩٨٧). (٢) تأبى وتشتد في الإباء. (٣) يتبعوا أثره.

والنكبة الشعواء، والداهية الدهياء: أن يقترفوا من الآثام والمعاصي أشدها، ويعتبروها من الهنة[1] البسيطة، وإذا تحدثت إليهم ونصحتهم؛ تمرمروا [2] وتجبروا، واتبعوا كل مأفون [3]، وذادوا عن الأهواء والآثام وحفائظ نفوسهم[4] وتسارعوا، واستبقوا [5] على السقوط في هوة الشيطان.

الله (عزوجل) السميع[6]:

قال (تعالى): ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورى: ١١].

وقال (تعالى): ﴿**إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا**﴾ [النساء: ٥٨].

إن اسم السميع له معنيان:

أحدهما: بمعنى المجيب.

والآخر: بمعنى السامع للصوت.

وأما السميع بمعنى إدراك الصوت، فله أقسام:

الأول: سمع يراد به بيان عموم إدراك سمع الله (تعالى) وأنه ما من صوت إلا ويسمعه. ومثاله: قوله (تعالى): ﴿**قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ**﴾ [المجادلة: ١] فهذا فيه بيان إحاطة سمع الله (تعالى) بكل مسموع، ولهذا قالت عائشة (﵂): «**الحمد لله، الذي وسع سمعه الأصوات، والله! إني لفي الحجرة، وإن حديثها ليخفى عليَّ بعضه**».

والثاني: سمع يراد به النصر والتأييد، ومثال ذلك قوله (تعالى) لموسى

---

(١) الذنب الصغير.
(٢) اهتزوا هزة غضب.
(٣) الأحمق، ضعيف الرأي.
(٤) أحقادهم.
(٥) تسابقوا.
(٦) «شرح العقيدة الواسطية» (صـ ١٣٢ - ١٣٣) بتصرف.

وهارون: ﴿قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

والثالث: سمع يراد به الوعيد والتهديد، ومثاله في قوله (تعالى): ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]. فإن هذا يراد به تهديدهم ووعيدهم، حيث كانوا يسرون ما لا يرضى من القول.

وأما السميع بمعنى المجيب:

- **ذكر طرف من دعاء الأنبياء واستجابة الله لهم:**

لما علمت الأنبياء أن العبادة هي الخضوع والتذلل لله (عز وجل) وأن الدعاء هو: إظهار غاية التذلل والافتقار إلى الله ، والاستكانة له، وأن العبادة ما شرعت إلا للخضوع للباري، وإظهار الافتقار إليه، من هذا المنطلق كانت الأنبياء أعلم الخلق بربهم، وأعلم الخلق بفضل الدعاء؛ ولذا كانوا أكثر الخلق دعاءً لله.

* فهذا إبراهيم (عليه السلام) عندما دعا قومه ، ولم يجد استجابة منهم ؛ لجأ إلى الدعاء؛ لعلمه أن الله هو القادر على نصره، وهو القادر على أن يرزقه الذرية على الكبر ، فقال ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم:٤٨]، فاستجاب له ربه، وأجزل له العطاء ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩].

* وهذا نوح (عليه السلام) عندما اشتد به الكرب دعا ربه بالنصر على الكافرين، بعد أن دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، وأخبره الله أنه لن يؤمن من قومه إلا الذين آمنوا، وأن الكافرين لن يؤمنوا أبدًا، فدعا عليهم بالهلاك، قال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء: ٧٦] .

* وهذا أيوب (عليه السلام) دعا ربه لضر مسه ، وذلك بعد أن مكث في المرض والبلاء ثمانية عشر عامًا ، والضر الذي مسه هو ترك زوجته له ،

وكذلك بُعد الناس كلهم عنه، فدعا الله أن يرزقه من يقوم على حاجته، فشفاه الله ، رحمة به قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٣]، فاستجاب له ربه ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

* وهذا النبي الصالح يونس (عليه السلام) يدعو ربه في ظلمات لا يعلمها إلا الله، وذلك عندما دعا قومه ، ولم يؤمنوا ، وأخبره ربه أنهم إن لم يؤمنوا سيصب عليهم العذاب ، كما فُعل بمن كان قبلهم، فتعجل يونس (عليه السلام) وترك القرية التي هم فيها؛ ليذوقوا العذاب، ولكن الله هداهم للإيمان، ولم يعلم يونس فذهب غضبانًا إلى البحر، فالتقمه الحوت، فنادى من بطن الحوت على سيده، وخالقه، ورازقه . قال تعالى : ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] ، فاستجاب له ربه ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء:٨٨].

* وهذا زكريا (عليه السلام) عندما اشتاق للولد الصالح الذي يرث النبوة من بعده قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء : ٨٩] ؛ فاستجاب له ربه : ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

* وهذا سليمان (عليه السلام) عندما أراد الملك، ودعا ربه ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥]. فأعطاه الله ملكًا لم يعط لأحد من بعده.

* وهذا نبي الله موسى (عليه السلام) كليم الله، لما أقام على فرعون الحجة؛ ورآه زاد في طغيانه وكفره، ووجده استخف قومه فأطاعوه، دعا عليه فقال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾

.[يونس : ٨٨]. فاستجاب له ربه فقال تعالى : ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس : ٨٩].

* وهذا نبي الله عيسى (ﷺ) عندما أراد الحواريون منه أن ينزل مائدة من السماء ؛ ليأكلوا منها، وتطمئن قلوبهم . فقالوا: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧] فدعا عيسى (ﷺ) فقال : ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [المائدة:٨٨]؛ فاستجاب له ربه ، ونزل عليه المائدة . قال (تعالى): ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٩٠]

* فهكذا تتعدد الدعوات، ويستجاب لهم، وذلك لأنهم ﴿كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]؛ فالدعاء هو تمام التذلل، والخضوع، وإظهار الضعف، وهو السر بين العبد وربه، وهو اليقين الذي جعل العبد يوقن أن ربه يعطي بغير حساب، فكلٌ يدعو، والله قادر على استجابة الدعاء ، ففي الدعاء يقين بأن الله يستجيب الدعاء، وأنه سميع ؛ يسمع الدعاء، وأنه بصير؛ يبصر حال الداعي، وأنه قادر، أي: على تذليل الصعاب ، وأنه القاهر، الذي لا يستطيع أحد أن يرد قضاءه، وأنه رحيم؛ حيث يستجيب، وغفور؛ حيث يغفر إن دعي، وأنه رزاق، حيث يرزق الداعي، وأنه كريم، حيث يعطي بغير حساب... إلخ.

• ذكر طرف من استجابة الله للكافرين إذا ما دعوه:

قال (تعالى): ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢].

* نشرت مجلة «المختار» «ريدردايجست» في عدد أكتوبر ١٩٤٤ تحت عنوان : «ألا تؤمن بالصلاة والدعاء» هذه الحادثة التي صاغتها كما يلي:

«واليوم تتدفق الأدلة التي لا تنقض من كل ناحية، على فضل الدعاء

وقوته، وليس مما يدهش أن يتوجه الناس في ساعة الشدة والحاجة إلى قوة خارجية، وإنما الشيء الوحيد المدهش في هذا، هو أن نراه مدهشًا، وما يصنع هؤلاء المصلون «الداعون» من الجنود والبحارة والطيارين؛ إلا كما صنع «لنكولن» الذي قال في أحلك أيام الحرب الأهلية: «بغير معونة من الله الذي هو معي لا أستطيع أن أنجح، وبهذه المعونة لا يمكن أن أخفق».

ولا يكاد يوجد فوق الأرض مخلوق لا ينطوي على الشوق الروحاني أو على شعور باطني مبهم بأن هناك قوة يتوجه إليها بفطرته... حدث لما اضطر الماجور «ألن لندبرج» - من وستفيلد بولاية نيوچرسي - وهو يقود إحدى القلاع الطائرة للنزول في البحر في طريقه إلى أستراليا، أن ساد الاعتقاد بأنه هو والتسعة الذين معه قد فقدوا، وفي هذا يقول الماجور:

تمكنا من الخروج على طوفين من المطاط وكدنا لا نفعل، ولم تكن معنا كسرة من خبز أو قطرة من ماء، وكان رجال الطائرة كلهم قلقين إلا الشاويش «ألبرت هرناندز» المدفعي الخلفي، وقد عكف من فوره على الدعاء والابتهال، وسرعان ما راعنا بقوله: «إنه يعرف أن الله قد استمع إليه وأنه سيساعدنا، وظلوا يهيمون تحت شمس محرقة وقد تشققت شفاههم وورمت ألسنتهم، فعجزوا عن مجاراة «هرناندز» في التهليل والتسبيح، ولكنهم كانوا يدعون مع ذلك، وبعد ثلاثة أيام وقبل دخول الليل لمحوا معالم جزيرة صغيرة، وما لبثوا أن شاهدوا ما لم يكن يجري لهم في خلد، فأقبلت عليهم ثلاثة زوارق فيها رجال عراة الأجساد، واتضح أن منقذيهم من أهل أستراليا الأصليين، وهم صيادون سود الأجسام منفوشو الرءوس، وقد جاءوا من داخل البلاد على مسافات مئات الأميال، وقالوا: إنهم دفعوا بدافع غريب إلى تغيير اتجاههم، فجاءوا بزوارقهم إلى هذا الشاطئ المرجاني الذي لا سكان فيه، وهناك لمحوا «لندبرج» وزملاءه.

* أذاع راديو دمشق في ١٠/١/١٩٦٥ الساعة الثالثة إلا الربع بعد الظهر، نقلاً عن مجلة الأبحاث الطبية الصادرة في إنكلترا، حادثة نشرتها

المجلة المذكورة بتوقيع الطبيب الذي جرت معه الحادثة، والقصة أن شابًا بقي مريضًا بمرض مزمن مدة ثلاث عشرة سنة وأعيا الأطباء دون أن يصل إلى نتيجة، وقد دخل عليه آخر طبيب، الطبيب الذي يروي القصة، وبعد أن أتم فحصه رأى أنه لا أمل منه، وهناك سأله المريض بلهجة اليائس: لا أمل يا دكتور؟! فقال الدكتور: هناك أمل واحد في السماء، فجرِّب أن تدعو، ألا تعرف أن تصلي؟ ولأول مرة يدعو الشاب الذي دام مرضه ثلاث عشرة سنة، وعندما زاره الطبيب بعد أسبوع ، وجد المريض معافى، وقد شفي من مرضه الذي لم يستطع الأطباء أن يعالجوه منه.

• ذكر نصر الله وتأييده للمسلمين بدعائهم:

* وحدثنا شاب مصري ممن شاركوا في المقاومة السرية التي جرت في مصر في قناة السويس من (١٩٥١ ـ ١٩٥٤) عن ثلاثة من المقاومين، خرجوا لينسفوا سكة حديد في منطقة مكشوفة... وكانت الليلة مقمرة، والسماء صافية، والأرض صحراوية، تُرى حركات من فيها عن بُعد، فيعرضهم ذلك لنيران العدو ومطاردته، فقال أحد الثلاثة وهم ماضون: يارب! ولا غيمة، فلم يلبثوا أن شاهدوا سحابة تجلل وجه القمر، فانتشر الظلام، مما ساعدهم على القيام بمهمتهم ورجعوا بسلام.

وكلنا سمع ما حدث يوم الهجوم على مصر أثناء العدوان الثلاثي، إذ اشتعلت النيران في مدينة بور سعيد، وضاق الأمر بالناس، ودعوا ربهم مخلصين، فكان المطر الذي أطفأ الحرائق يومذاك [1].

• ذكر احتباس الشمس بالدعاء ليوشع بن نون:

اسمه يوشع بن نون بن إفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. كان يوشع بن نون من الصالحين. وكان وهو في أول شبابه حريصًا على التعلُّم، ومجتهدًا في الطاعة.

(١) «الله» لسعيد حوى (صـ ٦٦ ـ ٦٨).

ومن شدة حرصه على إرضاء الله فقد مكان ملازمًا لنبي الله موسى (ﷺ)، وهو الذي ذكره القرآن في سورة الكهف، حيث يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ﴾ [الكهف: ٦٠].

فيوشع هو هذا الفتى... وأحب الله ـ ورسوله ـ وكان قلبه معلقًا بالجنة ويخاف أشد الخوف من عذاب الله ومن النار فنشأ صالحًا ورعًا تقيًا مطيعًا لموسى (ﷺ). وكان الله (عز وجل) قد أمر موسى عليه السلام، أن يخبر بني إسرائيل، بأن الله يريد منهم، أن يطهروا بيت المقدس، هذه الأرض المباركة، التي بارك فيها الله ـ عز وجل ـ وجعلها مهدًا لمعظم الرسالات، وقال لهم موسى (ﷺ): إن الله يأمركم أن تخرجوا أعداء الله من بيت الله، وتدخلوا أنتم فيه، لأنكم أنتم المسلمون، المستحقون لهذه الأرض، وللمسجد الأقصى.

فيرفض بنو إسرائيل ـ كعادتهم ـ أن يمتثلوا لأمر الله، وقالوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]. إلا أن يوشع بن نون، وكان رئيسًا لسبط من أسباط بني إسرائيل، فكان نقيب السبط الخامس، سبط يوسف (عليه السلام)، كان يحب أن يقاتل في سبيل الله، فقال لبني إسرائيل: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

وأخذ يوشع يُذكر بني إسرائيل، بوعد الله لهم بأنهم هم الغالبون، وبأن النصر من عند الله، وقد وعدكم بالنصر، فلم هذا الخوف ولما هذا الجبن، أتخافون ومعكم الله؟! فلما أصر بنو إسرائيل على أنهم لن يقاتلوا، كتب الله عليهم التيه في الأرض، أي يسيروا ولا يصلوا إلى أي مكان، فظلوا تائهين في الصحراء ومعهم موسى وهارون عليهما السلام.

ومات هارون... ثم مات موسى... وكان بنو إسرائيل لا يستطيعون الحياة بغير نبي، حيث إنهم على خلاف دائم، ويحتاجون إلى فصل الخلاف، بأمر من السماء.

فكان أتقى قلب في بني إسرائيل، هو قلب يوشع؛ لذا اصطفاه الله نبيًا، بعد موسى (عليه السلام)، فاجتهد في بني إسرائيل، وأصلح من شأنهم، ولما طالت المدة، ومات الذين عصوا الله ورسوله...

واستبدل الله غيرهم قوما آخرين... من الشباب والفتيان... بقيادة يوشع، أمرهم الله أن يدخلوا بيت المقدس، ويحرروا المسجد الأقصى من أيدي الطغاة، فأعد يوشع الجيش وتوكل على ربه (عز وجل) وكان مؤمنًا بأن الله سينصر من ينصره، وأنه يكفيه أنه من جند الله، وأنه إن مات فسوف يدخل الجنة، ويلقى ربه، فيقول له: يا رب هكذا قُتلت في سبيلك، وجاهدت في سبيل إعلاء كلمتك، وأهديت إليك نفسي ربي لترضى.

فجهز الجيش... وعبر نهر الأردن... وانتهى إلى أريحة...

وكانت أريحة من أشد الحصون قوة، وأكثر الحصون أهلاً، وأعلاها قصورًا، فتوكل على الله، وحاصرها ستة أشهر... ثم إنهم أحاطوا بها يومًا، وضربوها ضربًا شديدًا، وأخذوا يرددون، الله أكبر... الله أكبر... وهم يشعرون أن الله أكبر من الحصون، وأشد قوة من الجبابرة، وأن الله أكبر من أعدائه، وأنه معهم... فرددوا كلمة: الله أكبر، تلك الكلمة التي زلزلت الكافرين، ومزقت صفوفهم، وسقط جزء من سور المدينة، من شدة قول: الله أكبر.

ولكن...تحدث المفاجأة...

أن اليوم هو يوم الجمعة، وأن غدًا السبت، واليهود لا يقاتلون في يوم السبت، فماذا يفعلون؟ أيتركون الحصون بعد أن تزلزلت... أيتركون القتال... وهم الغالبون... أيقفون يوم السبت، ويُقتلون وهم لا يتحركون.

ولما كانوا يقاتلون في سبيل الله، فقد كان يوشع نبي الله، على ثقة بأن ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا** ﴾ [الطلاق: ٢]...

فقد قال للشمس: إنك مأمورة وأنا مأمور، اللهم! احبسها علي - أي: الشمس - فهي مأمورة بالطلوع، وأنا مأمور بالقتال، والذي أمرنا هو الله،

وأنه قادر على حبسها، فحبسها الله عليه، حتى تمكن من فتح البلد...

وقد قال رسول الله ﷺ: «**إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع، ليالي سار إلى بيت المقدس**» [١].

فهكذا كان النصر عظيمًا والاتحاد والاعتصام بكتاب الله، وطاعة الله، وكذلك يجازيهم ربهم خيرًا، وينصرهم على عدوهم.

إن المؤمن يعلم أنه «ما من كلام يدور بين الناس، أو حديث يتجاذبون أطرافه إلا سبق وَقْعُهُ إلى سمع الرحمن (جل وعلا) قبل أي شيء.

ويعلم تمام العلم أن الله حين يسمع نجوى جماعة لا يشغله ذلك عن سماع قوم آخرين. فما يشغله شأن عن شأن، وما تغيب عنه همسة وسط الضجيج، ولا تشتبه عليه لغة على اختلاف الألسنة.

إنك ـ بالوسائل التي هُدِي إليها البشر ـ تجلس في المشرق فتنتقل إليك محطات الإذاعة والأحاديث من المغرب، طاوية الأبعاد الشاسعة.

فما أيسر ـ في منطق العقل ـ أن يشرف رب الكون بسمعه على كل حركة وسكنة في الوجود، تنبعث من مصدرها القريب أو البعيد ـ وليس ثمَّ قُرْبٌ ولا بُعْدٌ بالنسبة إلى الله ـ فيعلم كنهها، ويسمع صوتها، ويبصر وضعها! إن ربك يسمع كل صوت» [٢].

فتدبر قوله (تعالى): ﴿**وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى**﴾ [طه: ٧].

وما أجمل أن يستشعر القلب أن الله (عز وجل) يسمع كل كلمة، ويعلم كل حركة وسكنة، فيعلم أن الله (تعالى) في جواره، وأنه معه بنصره وبتأييده، وأنه يجيب المضطر إذا دعاه، وإذا علم أن الله (سبحانه) يجيب المضطر ـ وإن كان كافرًا ـ فيبعث ذلك في المؤمن نورًا من نور الإيمان يسير

---

(١) صحيح . انظر «صحيح الجامع» (٥٦١٢).

(٢) «عقيدة المسلم» للغزالي.

المؤمن على هداه؛ لذلك أحب الله (عـز وجل) من غضب لله، وأعطى لله، ومنع لله، وفرح لله، أي: غضب لما يغضب له الله، وأعطى حيث يحب الله أن يعطي، ومنع حيث أمر الله أن يمنع، وفرح لما يفرح به الله.

فقـال (تعالى): ﴿**الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [النور: ٢]، وذلك من الغضب لله (عز وجل)، حيث إن الله (سبحـانه) يغار أن تنتهك محارم المسلم، فـوجب علينا ألا تأخذنا الرأفة بالزاني ولا الزانيـة، وذلك في دين الله، لأننا نـغضب هنا لله (عـز شـأنه) وحده، ولا نغضب لأنفسنا.

وقال (تعالى): ﴿**وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ**﴾ [الشورى: ٣٧]، والغضب هنا للنفس، فإن غضب الإنسان لنفسه كـان أزكى له عند ربه أن يغـفـر لأخيـه المسلم، وألا يكون هـذا الغـضب للنفس.

فانظر إلى الآيتين، تجد أن الآية الأولى أمرنا الله (عز وجل) ألا تأخذنا الرأفة بمن أمر الله (سبحـانه) بعقابهم، لأن ذلك لا يرضى به الله، وأمرنا إذا ما أساء أحد إليـنا أن نغفر، وجعل هـذه الصفـة من صفات المؤمنين، وأثنى عليهم بهـذه الصفة.

لذا فقـد قال (ﷺ): «**من أحب لله، وأبغض فـي الله، وأعطى في الله، ومنع في الله، فقد استكمل الإيمان**»[1].

فإن كـان ذلك كذلك، وجب عـلينا أن نعبـد الله (عز وجل) باسـمه السميع، حبًا وإجلالاً، وتعظيمًا وهيبةً، ورجاءً وخوفًا، وإليك مثال:

إذا كنت عند أحد ملوك الدنيا، وعلمت أن هـذا الملك يحب كلمات، ولا يحب كلمات أخرى، وأنه من تكلم أمامه بالكلمات التي يحبها أجزل له

(١) صحيح. انظر «صحيح الجامع» (٥٩٦٥).

العطاء، ومن تكلم بالكلمات الأخرى يسومه سوء العذاب. فإن علمت ذلك فإنك لا تتكلم بما يغضبه، وتتكلم بما يرضيه.

فـما بالك برب الأرباب، خـالق الأرض والسحـاب، الذي يسمـعك ويعلم ما في نفسك، فما بالك تتكلم وكـأن الله (سبحانه) لا يسمعك، فلِم جعلت الناس يسمعون منك الخيـر، وأضمرت الشر إلى ما بينك وبين ربك، فلِم تتكلم أمـام بعض الناس بأحسن الكلمـات، وتدخر أسـوء الكلمات إذا خلوت بربك، فإنك لو علمت أن الله يسـمعك، وآمنت بذلك حق الإيمان، لما تكلمت بكلمة تغضبه، وأجهدت نفـسك بالكلمات التي يحبها، وبالمناجاة والذكر لله رب العالمين.

إن عبادة الله باسمه السميع تتحدد في أمرين:

أولهما: ألا تتكلم بما يغضب الله.

آخرهما: أن تتكلم بما يحبه الله.

وبذلك تكون قد عبدت الله حق عبـادته بهـذا الاسم، وإليك التفصيل الآتي:

- **الكلمات التي تغضب الله (عز وجل)[1]:**

١ ـ الكلام فيما لا يعنيك.

٢ ـ فضول الكلام.

٣ ـ الخوض في الباطل.

٤ ـ المراء والجدال.

٥ ـ الخصومة.

٦ ـ التقعر بالكلام بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة.

٧ ـ الفحش والسب وبذاءة اللسان.

---

(١) هذا الترتيب من كتاب «الإحياء» (٣/١٥٩).

٨ ـ اللعن.

٩ ـ الغناء والشعر.

١٠ ـ المزاح.

١١ ـ السخرية والاستهزاء.

١٢ ـ إفشاء السر.

١٣ ـ الوعد الكاذب.

١٤ ـ الكذب في القول واليمين.

١٥ ـ الغيبة.

١٦ ـ النميمة.

١٧ ـ كلام ذي اللسانين.

١٨ ـ المدح.

١٩ ـ الغفلة عن دقائق الخطأ في فحوىٰ الكلام.

٢٠ ـ سؤال العوام عن صفات الله تعالىٰ وعن كلامه. اهـ

• من الكلمات التي يحبها الله (عز وجل):

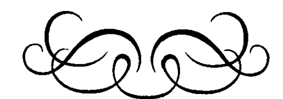
١ ـ ذكر الله.

٢ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٣ ـ قراءة القرآن.

٤ ـ تعليم العلم.

٥ ـ مجالس الذكر.





ثالثاً

الزهد في الدنيا

«الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين، وهو عبارة عن :

انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه، فكل من عدل عن شيء إلى غيره بمعاوضة وبيع فإنما عدل عنه لرغبته عنه، وإنما عدل إلى المعدول إليه لرغبته في غيره، فحاله بالإضافة إلى المعدول عنه يسمى: زهدًا، وبالإضافة إلى المعدول إليه يسمى: رغبة وحبًا، فإذن يستدعي حال الزهد مرغوبًا فيه، ومرغوبًا عنه، والمرغوب فيه هو خير من المرغوب عنه، وشرط المرغوب عنه أن يكون هو ـ أيضًا ـ مرغوبًا فيه بوجه من الوجوه، فمن رغب عما ليس مطلوبًا في نفسه لا يسمى زاهدًا.

ومثال ذلك: من يزهد في الحجر والتراب ، فذلك لا يسمى زاهدًا ، ولكن من يزهد الدراهم والدنانير والأموال هو الذي يسمى زاهدًا؛ ذلك لأنه زهد في شيء مرغوب فيه، وهو: المال والغنى ، ورغب في طاعة الله وقربه؛ ولذلك قال الله (تعالى) : ﴿**وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ**﴾ [يوسف: ٢٠] ، فقد زهدوا فيه؛ إذ طمعوا أن يخلو لهم وجه أبيهم، وكان ذلك عندهم أحب إليهم من يوسف فباعوه طمعًا في العوض، فإذن كل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد في الدنيا، وكل من باع الآخرة بالدنيا فهو ـ أيضًا ـ زاهد ، ولكن زَهدَ في الآخرة.

ولما كان الزهد رغبة عن محبوب بالجملة ، لم يتصور إلا بالعدول إلى شيء هو أحب منه، وإلا فترك المحبوب بغير الأحب محال، والذي يرغب عن كل ما سوى الله (تعالى)، ولا يحب إلا الله (تعالى) ، فهو الزاهد المطلق، والذي يرغب عن كل حظ ينال في الدنيا، ولم يزهد في الآخرة ، بل طمع في الحور ، والقصور، والأنهار والفواكة، فهو زاهد، ولكن دون الأول، والذي يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض ، كالذي يترك المال دون الجاه فهو زاهد ، ولكن دون الزهد الأول والثاني»[1].

(١) «الإحياء» (٤/ ٣١١) بتصرف.

والسؤال: كيف نزهد الدنيا ؟

والجواب:

«لا تتم الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا، ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين:

النظر الأول: النظر في الدنيا ، وسرعة زوالها ، وفنائها ، واضمحلالها ، ونقصها، وخستها، وألم المزاحمة عليها ، والحرص عليها، وما في ذلك من الغُصص ، والنغص، والأنكاد ، وآخر ذلك الزوال والانقطاع مع ما يعقب ذلك من الحسرة والأسف، فطالبها لا ينفك من هَمٍّ قبل حصولها ، وهَمٍّ في حال الظفر بها، وغم وحزن بعد فواتها ، فهذا أحد الأمرين.

النظر الثاني: النظر في الآخرة وإقبالها ومجيئها - ولا بد - ودوامها وبقائها، وشرف ما فيها من الخيرات والمسرات والتفاوت الذي بينه وبين ما هاهنا ، فهي كما قال سبحانه : ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى : ١٧] فهي خيرات كاملة دائمة، وهذه خيالات ناقصة منقطعة مضمحلة .

فإذا تم له هذان النظران آثر ما يقتضي العقل إيثاره ، وزَهَّدَه فيما يقتضي الزهد فيه، فكل أحد مطبوع على ألا يترك النفع العاجل، واللذة الحاضرة إلى النفع الآجل ، واللذة الغائبة المنتظرة، إلا إذا تبين له فضل الآجل على العاجل، وقويت رغبته في الأعلى الأفضل، فإذا آثر الفاني الناقص؛ كان ذلك إما لعدم تبين الفضل له ، وإما لعدم رغبته في الأفضل.

والإنسان إذا رغب في الدنيا وحرص عليها ؛ فهو إما أن يكون مصدق أن الآخرة أفضل، وزهد الآخرة؛ كان فاسد العقل سيئ الاختيار لنفسه، وإما أن يكون غير مصدق بأن الآخرة أفضل وأبقى، وذلك معدوم الإيمان.

ولهذا نبذها رسول الله (ﷺ) وراء ظهره وأصحابه ، وصرفوا عنها قلوبهم، وطرحوها ، ولم يألفوها، وهجروها، ولم يميلوا إليها، وعدوها سجنًا لا جنة، فزهدوا فيها حقيقة الزهد، ولو أرادوها لنالوا منها كل

محبوب، ولوصلوا منها إلى كل مرغوب، فقد عرضت عليه (ﷺ) مفاتيح كنوزها فردها، وفاضت على أصحابه فآثروا بها، ولم يبيعوا حظهم من الآخرة بها، وعلموا أنها معبر وممر، لا دار مقام ومستقر وأنها دار عبور لا دار سرور، وأنها سحابة صيف تنقشع عن قليل، وخيال طيف ما استتم الزيارة حتى أذن بالرحيل.

قال النبي (ﷺ): «**ما لي وللدنيا، إنما أنا كراكب قال[1] في ظل شجرة ثم راح وتركها**»[2].

وقال (ﷺ) : «**ما للدنيا في الآخرة إلا كما يدخل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بم ترجع**»[3] .

الله يرغب عباده في الزهد في الدنيا:

إن الدنيا في القرآن ما هي إلا زينة زائلة، فضرب الله (تبارك وتعالى) مثلاً فقال: ﴿**إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [يونس: ٢٤ ـ ٢٥].

قال الإمام ابن كثير «التفسير» (٢/٣٧٤):

«ضرب تبارك وتعالى مثلاً لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها ، بالنبات الذي أخرجه الله من الأرض، بماء أنزل من السماء، مما يأكل الناس من زروع وثمار على اختلاف أنواعها وأصنافها، وما تأكل الأنعام من أبٍ وقضبٍ وغير ذلك ﴿**حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا**﴾ أي:

(١) قال : أي : نام وقت القيلولة «الظهيرة».

(٢) خرجه البخاري (٣/ ٢١٣).

(٣) خرجه الترمذي (٤/ ٤٨٦) كتاب الزهد.

زينتها الفانية ﴿وَازَّيَّنَتْ﴾ أي: حسنت بما خرج في رُباها من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا﴾ الذين زرعوها وغرسوها ﴿أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: على جذاذها وحصادها، فبينما هم كذلك إذ جاءتها صاعقة أو ريح شديدة باردة ، فأيبست أوراقها وأتلفت ثمارها، ولهذا قال تعالى : ﴿ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا ﴾ أي: يابسًا بعد الخضرة والنضارة : ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾ أي: كأنها ما كانت حينًا قبل ذلك.

وقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلامِ﴾ لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة زوالها رغّب في الجنة ودعا إليها وسماها دار السلام، أي: من الآفات والنقائص والنكبات». اهـ

وكذا كرر الله عز وجل الأمثال في القرآن ليخبرنا أن الآخرة هي دار البقاء ، وأن الدنيا هي دار الفناء، ولكي نقدر للآخرة قدرها وللدنيا قدرها فقال (تعالى) : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا * الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ [الكهف: ٤٥ ـ ٤٦].

وقال (تعالى) : ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠]، وأخبر (تعالى) أن الشهوات قد زينت للناس من حب النساء، وحب الأبناء، والمال، والخيل، والأنعام، والحرث ، وذكر أن ذلك هو متاع الدنيا، ثم ذكر أن الله عنده حسن المآب، فقال : إن الخير ليس في ذلك ، ولكن الخير في الآخرة لمن اتقى. قال تعالى : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ

فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد ﴾ [آل عمران: ١٤ - ١٥].

وذم الله (عز وجل) الدنيا فقال: ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع ﴾ [الرعد: ٢٦].

وتوعد الله لمن رضي بالحياة الدنيا واطمأن بها، وغفل عن آياته، ولم يرج لقاءه فقال: ﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون * أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾ [يونس: ٧ - ٨].

ويكفي في الزهد في الدنيا قوله (تعالى): ﴿ أفرأيت إن متعناهم سنين * ثم جاءهم ما كانوا يوعدون * ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧].

وقوله: ﴿ ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين ﴾ [يونس: ٤٥].

وقوله: ﴿ كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقوله: ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها * فيم أنت من ذكراها * إلى ربك منتهاها * إنما أنت منذر من يخشاها * كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ [النازعات: ٤٢ - ٤٦].

وقوله: ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون ﴾ [الروم: ٥٥].

وقوله: ﴿ قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين * قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين * قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون ﴾ [المؤمنون: ١١٢ - ١١٤].

وقوله: ﴿ يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا * يتخافتون

بينهم إن لبثتم إلا عشراً * نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً﴾ [طه : ١٠٢ ـ ١٠٤][1].

طرف من الزهد في حياة النبي (ﷺ) وأصحابه[2]:

النبي (ﷺ) يزهد الدنيا ويعلم صحابته الزهد فيها:

«دخل عمر بن الخطاب على رسول الله (ﷺ) ـ وهو على حصير ـ قال: فجلست فإذا عليه إزاره ، وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثر في جنبه، وإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع، وقرظ ـ أي: ورق السلم يدبغ به ـ في ناحية في الغرفة، وإذا أهاب معلق ، فابتدرت عيناي، فقال: «**ما يبكيك؟ يا بن الخطاب!**» فقال: يا نبي الله! وما لي لا أبكي! وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار، وأنت نبي الله وصفوته ، وهذه خزانتك! قال : «**يا بن الخطاب! ما ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا**». خرجه الحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم.

* دخلت امرأة من الأنصار على عائشة فرأت فراش رسول الله (ﷺ) قطيفة مثنية فبعثت إليها بفراش حشوه الصوف، فدخل عليها رسول الله (ﷺ) فقال: «**ما هذا؟ يا عائشة!**» قالت: يا رسول الله! فلانة الأنصارية دخلت فرأت فراشك فذهبت فبعثت إليَّ بهذا، فقال: «**رديه يا عائشة! فوالله! لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة**».

وهذا أبو بكر (رضي الله عنه) يزهدها كما زهدها النبي (ﷺ):

* قال زيد بن أرقم : كنا مع أبي بكر (رضي الله عنه) فاستسقى ، فأتي بماء وعسل، فلما وضعه على يده بكى وانتحب ـ أي: بكى بصوت ـ حتى ظننا أن به شيئاً، ولا نسأله عن شيء ، فلما فرغ قلنا: يا خليفة رسول الله (ﷺ)! ما حملك على هذا البكاء؟ قال: بينما أنا مع رسول الله (ﷺ) إذ

(٤) «الفوائد» (ص ١٠١ ، ١٠٢) لابن قيم الجوزية.

(٢) «حياة الصحابة» (٢/ ٢٥٤).

رأيته يدفع عن نفسه شيئًا، ولا أرى شيئًا فقلت: يا رسول الله! ما الذي أراك تدفع، ولا أرى شيئًا؟ قال: «**الدنيا تطولت لي، فقلت: إليك عني، فقالت: أما إنك لست بمدركي**»، قال أبو بكر: فشقَّ عليَّ، وخشيت أن أكوْن قد خالفت أمر رسول الله (ﷺ) ولحقتني الدنيا.

فيا للعجب! من رجل يؤتى بماء وعسل، وليس ذاك من النعيم في شيء، ولكنه يخشى أن تكون لحقته الدنيا، واغتر بها، وتنعم بها.

وهذا عمر (رضي الله عنه) يلحق بصاحبيه:

لما اجتمع بعض المسلمين، وهم: عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، قالوا: نريد أن نزيد لعمر في رزقه - أي: الدخل الذي يأخذه نظير الخلافة؛ لكي يتفرغ لشؤون المسلمين - ؛ لأنه قد اشتدت حاجته، فانطلقوا إلى حفصة، وأخبروها الخبر، وطلبوا منها ألا تخبر عنهم، إلا إذا قبل الزيادة، فدخلت على عمر وأخبرته، فقال: من هؤلاء؟ قالت: لا سبيل إلى علمهم حتى أعلم رأيك، فقال: لو علمت من هم لسؤت وجوههم.

أنشدك بالله! ما أفضل ما لبس رسول الله (ﷺ) في بيتك من الملبس؟

قالت: ثوبين ممشقين، كان يلبسهما للوفد ويخطب فيهما للجمع.

قال: فأي الطعام ناله عندك أرفع؟

قالت: خبزنا خبزة شعير فصببنا عليها - وهي حارة - أسفل عكة لنا فجعلناها هشة دسمة، فأكل منها.

فقال: أي مبسط كان يبسطه عندك من الفراش؟

قالت: كساء لنا ثخين، كنا نربعه في الصيف، فنجعله تحتنا، فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه.

قال: يا حفصة! فأبلغيهم عني أن رسول الله (ﷺ) قدر، فوضع الفضول مواضعها، وتبلغ بالترجئة، وإنما مثلي ومثل صاحبي كثلاثة سلكوا طريقًا، فمضى الأول، وقد تزود زادًا فبلغ، ثم اتبعه الآخر، فسلك طريقه

فأفضى إليه، ثم اتبعه الثالث ، فإن لزم طريقهما ورضي بزادهما لحق بهما، وكان معهما ، وإن سلك غير طريقهما لم يجامعهما.

- فيا للعجب! من أناس باعوا الدنيـا بالآخرة، وقد علموا أنهم قد أوتوا الآخرة، وبشرهم رسول الله ﷺ بأنهم من أهل الجنة، ولكنهم لم يرغبوا في الدنيا طرفـة عين، فشوقـهم للآخرة جعلهم يحـتقرون نعـيم الدنيا الزائل، ويقدرون له قدره الحق.

* ولما رأى حفص بن أبي العاص (رضي الله عنه) طعام عمر (رضي الله عنه) لم يأكل معه، فقال له عمر: ما يمنعك من طعامنا؟ قال: إن طعامك خشن ، غليظ، وإني راجع إلى طعام لين قد صنع لي ، فأصيب منه، قال: أتراني أعجز أن آمر بشاة فيلقى عنها شعرها، وآمر بدقـيق فينخل في خرقة، ثم آمر به فيخبز خبزًا دقـاقًا، وآمر بصاع مـن زبيب، فيقذف في سـمن، ثم يصب عليه من الماء؛ فيـصبح كأنه دم غزال؟ فـقال حفص: إني لأراك عـالمًا بطيب العيش.

فقال عمر: أجل، والذي نفسي بيده! لولا كراهية أن ينقص من حسناتي يوم القيامة؛ لشاركتكم في عيشكم.

فما هـذا الإصرار الغريب منـك يا عمر، يا فاروق الأمة على أن تجمع الحسنات، ولا تترك نفسك لأهوائها، ولا تتبع شهوات النفس، ولا تميل بك نفسك حـتى إلى الحلال الذي فيه تـرف، فما هـذا الإصـرار على الآخرة، ونيل مـا فيـها من الخـير. وأين الملـوك ـ الآن ـ من هـذه الكلمـات، وأين الفقراء الذين لم ينالوا حظًا من الدنيا ويتمنونها.

* وهـذا عـبد الله بن الزبيـر لما زهد في الدنيا، ورغـب في الآخرة، فكان إذا أقبل على ربه في الصلاة، نسي كل شيء، وخاف مقام ربه.

عن ثابت البُناني، قال: كنت أمر بعبد الله بن الزبير وهو يصلي خلف المقام كأنه خشبة منصوبة لا يتحرك.

وقال الأعمش: عن يحيى بن وثاب : كان ابن الزبير إذا سجد وقعت العصافير على ظهره تصعد وتنزل لا تراه إلا جذام حائط.

وقال غيره: كان ابن الزبير يقوم ليله حتى يصبح - أي: يظل يقرأ القرآن في الركعة الواحدة إلى أن يطلع عليه الصبح - ويركع ليله حتى يصبح، ويسجد ليله حتى يصبح.

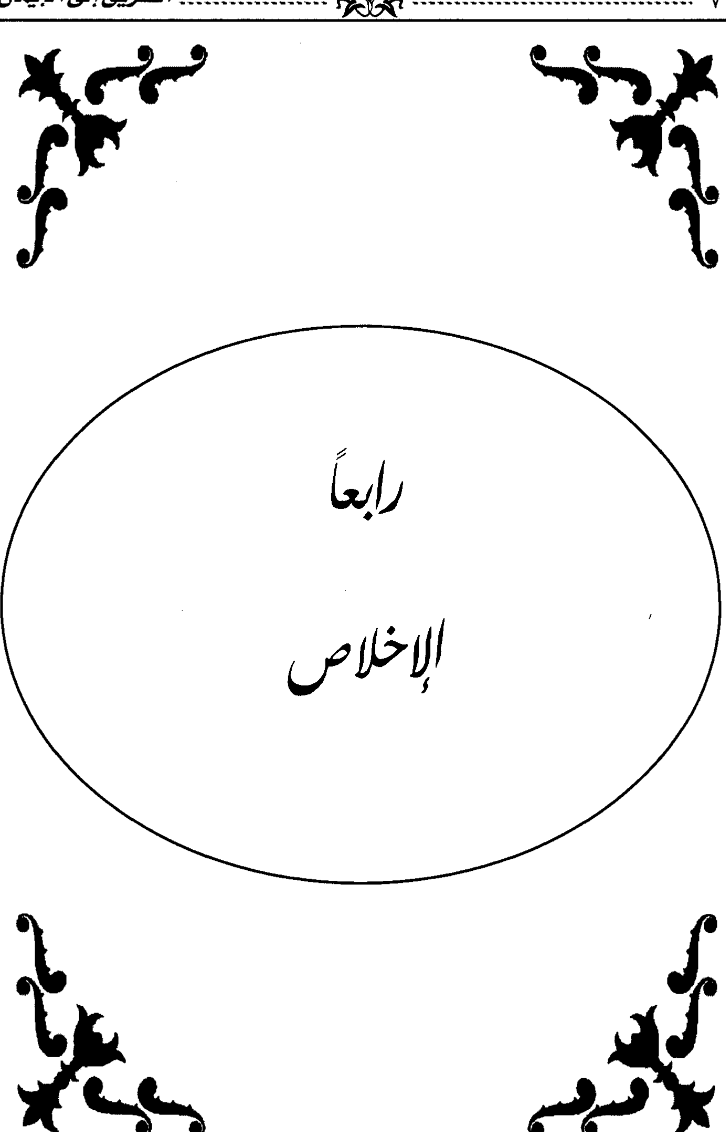
وقال بعضهم: ركع ابن الزبير - يومًا - فقرأت البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، وما رفع رأسه.

وقال ابن المنكدر: لو رأيت ابن الزبير يصلي كأنه غصن شجرة يصفقها الريح، والمنجنيق يقع هاهنا وهاهنا.

قال سفيان: كأنه لا يبالي به، ولا يعده شيئًا. وحكى بعضهم لعمر ابن عبد العزيز أن حجرًا من المنجنيق وقع على شرفة المسجد فطارت فلقة منه فرمت بين لحية ابن الزبير وحلقه فما زال عن مقامه، ولا عرف ذلك في صورته، فقال عمر بن عبد العزيز: لا إله إلا الله! جاء ما وصفت[1].



(١) «البداية والنهاية» (٨/ ٣٣٨).



رابعاً

الإخلاص

الإخلاص وإحضار النية (١) :

قال الله تعالىٰ : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة : ٥]، وقال تعالىٰ : ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ [الزمر : ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠]. وروي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوىٰ، فمن كانت هجرته إلىٰ الله ورسوله؛ فهجرته إلىٰ الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه**»(٢). حديث صحيح متفق علىٰ صحته. مجمع علىٰ عظم موقعه وجلالته ، وهو إحدىٰ قواعد الإيمان، وأول دعائمه ، وآكد الأركان.

قال الشافعي - رحمه الله - :

يدخل هذا الحديث في سبعين بابًا من الفقه.

وقال أيضًا :

هو ثلث العلم.

وكذا قاله - أيضًا - غيره، وهو أحد الأحاديث التي عليها مدار الإسلام، واستحب جماعة من السلف أن يفتتحوا الكتب بهذا الحديث تنبيهًا للطالب علىٰ تصحيح النية.

قال أبو العباس عبد الله بن عباس ﷺ :

«إنما يعطىٰ الرجل علىٰ قدر نيته».

---

(١) آداب العالم والمتعلم (ص ٦) وما بعدها ، للإمام النووي.

(٢) خرجه البخاري باب : كيف كان بدء الوحي (١) ، ومسلم باب قوله (ﷺ) : «إنما الأعمال بالنيات» (١٩٠٧).

وقال أبو محمد سهل بن عبد الله التستري ـ رحمه الله:

«نظر الأكياس في تفسير الإخلاص، فلم يجدوا غير هذا: أن تكون حركاته ، وسكونه، في سره وعلانيته لله تعالىٰ وحده، لا يمازجه شيء، لا نفس ، ولا هوىٰ ولا دنيا».

وقال السري ـ رحمه الله ـ :

«لا تعمل شيئًا للناس، ولا تترك لهم شيئًا، ولا تعط لهم شيئًا، ولا تكشف لهم شيئًا».

أي : لا تعمل عملاً طيبًا تريد به الأجر من الناس، أو إعجابهم به، ولا تترك عملاً من الأعمال الخبيثة ليحمدك الناس، ويوقرونك، ولا تعط لأحد شيئًا تبتغي الأجر من غير الله، ولا تجعلهم يطلعوا علىٰ أعمالك؛ لكي يكون العمل خالصًا لوجه الله.

وقيل لحبيب بن ثابت التابعي ـ رحمه الله ـ حدثنا قال:

«حتىٰ تجيء النية».

وقال أبو عبد الله سفيان بن سعيد الثوري ـ رحمه الله ـ :

«ما عالجت شيئًا أشد عليَّ من نيتي، إنها تتقلب عليَّ».

وقال أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري ـ رحمه الله ـ :

«الإخلاص : إفراد الحق في الطاعة بالقصد، وهو أن تريد بطاعته التقرب إلىٰ الله (تعالىٰ) ، دون شيء آخر، من تصنع لمخلوق ، أو اكتساب محمدة عند الناس ، أو محبة مدح من الخلق ، أو شيء سوىٰ التقرب إلىٰ الله تعالىٰ»، قال: ويصح أن يقال: «الإخلاص : تصفية العقل عن ملاحظة المخلوقين».

وقال أبو عليّ الدقاق ـ رحمه الله ـ :

«الإخلاص : التوقي عن ملاحظة الخلق، والصدق: التنقي عن مطالعة النفس، فالمخلص لا رياء له، والصادق لا إعجاب له».

وقال أبو يعقوب السوسي ـ رحمه الله ـ :

«متى شهدوا في إخلاصهم الإخلاص؛ احتاج إخلاصهم إلى إخلاص».

أي : متى أعجب العبد بعمله، وأحس فيه بالإخلاص، كان ذلك دليلاً على افتقاده للإخلاص؛ لأن الذي يعطي لله لا ينظر إلى عمله بنظرة الرضى؛ خشية أن يكون العمل غير مقبول عند الله.

وقال ذو النون المصري ـ رحمه الله ـ :

«ثلاثة من علامات الإخلاص: استواء المدح والذم من العامة، ونسيان رؤية الأعمال في الأعمال، واقتضاء ثواب العمل في الآخرة».

أي: للإخلاص علامات : منها استواء المدح والذم من العامة، أي: إذا سبه أحد من العامة لم يغضب لذلك، وإذا مدحه أحد من العامة لم يفرح لذلك، لأن العامة ، أو الناس لا يرجى الثواب منهم، ولكن الثواب من الله وحده، فمدحهم كذمهم، ما دام العبد لا يغضب ربه عز وجل. ومنها: نسيان رؤية الأعمال في الأعمال، أي: لا ينظر لعمله بإعجاب، فما يدريه أنه مقبول. ومنها: اقتضاء الثواب في الآخرة، أي: لا يطلب ، ولا ينتظر ثواب على أي الأعمال إلا في الآخرة، وذلك ـ بلا شك ـ من الله وحده.

وقال أبو عثمان ـ رحمه الله ـ :

«الإخلاص نسيان رؤية الخلق، بدوام النظر إلى الخالق».

وقال حذيفة المرعشي ـ رحمه الله ـ :

«الإخلاص أن تستوي أفعال العبد في الظاهر والباطن».

أي: إن كان يصلي وحده صلاة قصيرة، ويصلي أمام الناس صلاة طويلة، فهذا يرائي الناس بعمله، أما من استوت أفعاله الظاهرة والباطنة، فإنه هو الذي حقق الإخلاص.

وقال أبو علي الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ :

«ترك العمل لأجل الناس؛ رياء، والعمل لأجل الناس؛ شرك، والإخلاص : أن يعافيك الله منهما».

أي : إذا تركت عملاً كنت تقوم به من أجل نظرة الناس لك، ونقدهم إياك ، فأنت مراء، وإن عملت العمل ليعجب الناس به دخل العمل في الشرك، والإخلاص ألا تترك شيئًا للناس، ولا تعمل لأجلهم شيئًا.

وقال رويم ـ رحمه الله ـ :

«الإخلاص : ألا يريد على عمله عوضًا من الدارين ، ولا حظًا من الملكين».

أي: لا يبتغي إلا رضى الله (عز وجل) وحده، ولا يعمل للجنة، أو يترك للنار، بل يحقق إخلاص العمل بألا يطلب من الثواب إلا رضى الملك الجبار.

وقال يوسف بن الحسين ـ رحمه الله ـ :

«أعز شيء في الدنيا : الإخلاص».

وقال أبو عثمان ـ رحمه الله ـ :

«إخلاص العوام: ما لا يكون للنفس فيه حظ، وإخلاص الخواص ما يجري عليهم لا بهم، فتبدو منهم الطاعات ، وهم عنها بمعزل، ولا يقع لهم عليها رؤية ، ولا بها اعتداد».

نماذج من الإخلاص:

قال محمد بن المثنى [١]: حدثنا عبد الله بن سنان ، قال: كنت مع ابن المبارك ، ومعتمر بن سليمان بطرسوس ، فصاح الناس : النفير ـ أي: الجهاد ـ فخرج ابن المبارك والناس ، فلما اصطف الجمعان ، خرج رومي، فطلب البِراز ـ المبارزة ـ فخرج إليه رجل، فشد عليه العلج [٢] فقتله، حتى

(١) «سير أعلام النبلاء» (٨/٤٠٨ ـ ٤٠٩).   (٢) العلج : كل جاف شديد من الرجال.

قتل ستة من المسلمين، وجعل يتبختر بين الصفين يطلب المبارزة، ولا يخرج إليه أحد، فالتفت إليَّ ابن المبارك فقال: يا فلان! إن قُتلتُ فافعل كذا وكذا، ثم حرَّك دابته، وبرز للعلج، فعالج معه ساعة، فقتل العلج، وطلب المبارزة، فبرز له علج آخر فقتله، حتى قتل ستة علوج، وطلب البِراز، فكأنهم كاعوا [١]، عنه، فضرب دابته، وطرد بين الصفين، ثم غاب، فلم نشعر بشيء، وإذا أنا به في الموضع الذي كان، فقال لي: يا عبدالله! لئن حدثت بهذا أحدًا وأنا حي، فذكر كلمة[٢].

ونرى مدى حرص عبد الله بن المبارك ـ رحمه الله ـ على أن يخفي شجاعته، وأنه هو الذي أخاف أعداء الله، لكي لا يكون فيمن ذكرهم رسول الله ﷺ في المعارك بقوله: «**إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**»[٣]. وقال ذلك في الرجل الذي أثنى عليه المسلمون، وأعجبوا بشجاعته، وشدة قتاله، فقال: «هذا من أهل النار»، وذاك لأن الرجل كان يقاتل ليقال شجاع.

ولما علم ابن المبارك أن أول من يدخل النار عالم، ومتصدق، وشهيد، وذلك إذا عمل العمل يرائي به الناس، فكان حريصًا على إخفاء الصدقات.

عن محمد بن عيسى قال[٤]: كان عبد الله بن المبارك كثير الاختلاف إلى طرسوس، وكان ينزل الرقة، في خان، فكان شاب يختلف إليه، ويقوم بحوائجه، ويسمع منه الحديث، قال: فقدم عبد الله الرقة مرة، فلم ير ذلك الشاب، وكان مستعجلاً فخرج في النفير، فلما قفل من غزوته ورجع إلى الرقة سأل عن الشاب فقالوا: إنه محبوس لدَين ركبه، فقال عبد

---

(١) جبنوا.

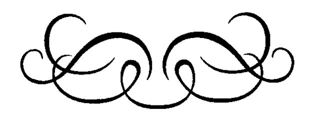
(٢) يقصد أنه شدد عليه وأكد ألا يذكر هذه القصة لأحد.

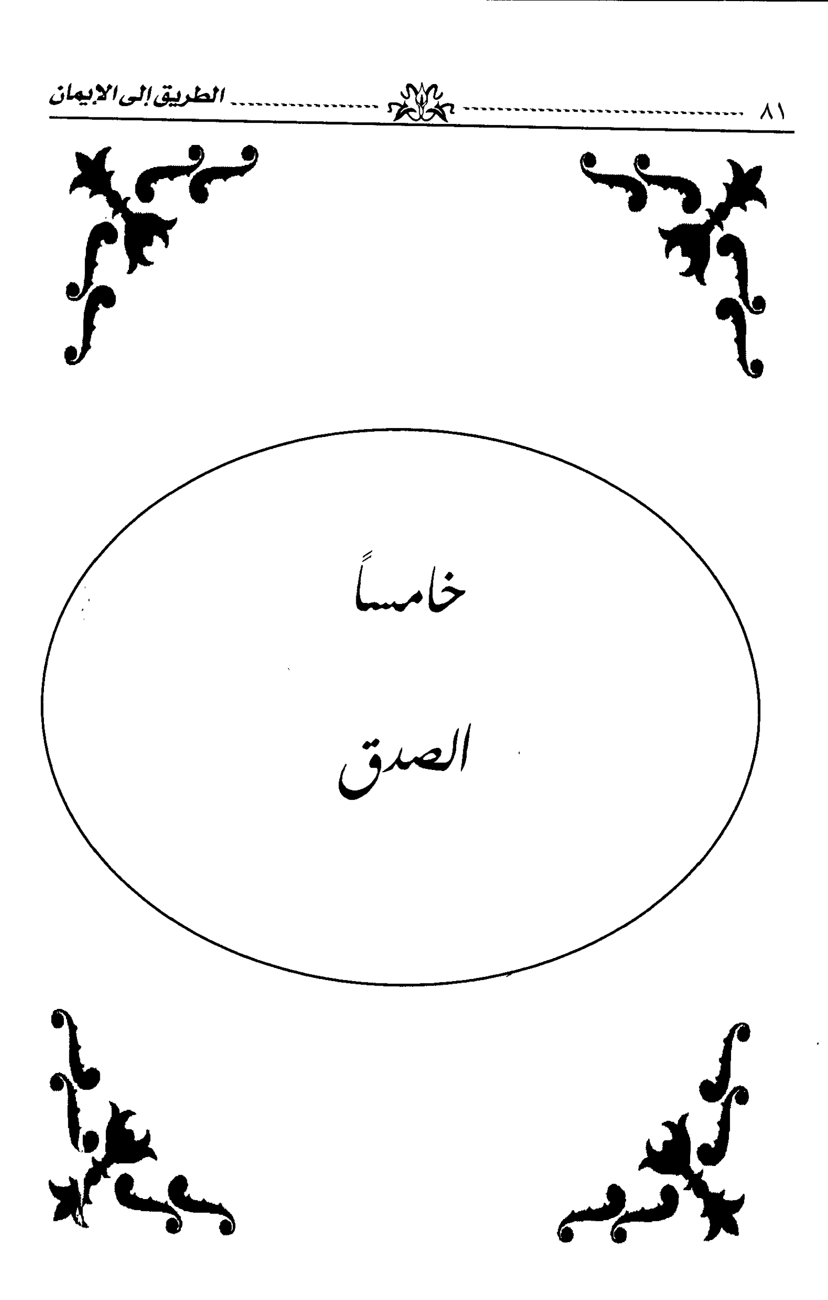
(٣) خرجه البخاري (٦٦٠٦) (٣٠٦٢)، ومسلم (١١١).

(٤) «صفة الصفوة» (٤/ ١٤١، ١٤٢).

الله: وكم مبلغ دينه؟ قالوا: عشرة آلاف درهم، فلم يزل يستقصي حتى دُل على صاحب المال، فدعا به ليلاً، ووزن له عشرة آلاف درهم، وحلفه ألا يخبر أحدًا ما دام عبد الله حيًا، وقال: إذا أصبحت فأخرج الرجل من الحبس.

وأدلج عبد الله ، وأُخرج الفتى من الحبس، وقيل له: عبد الله ابن المبارك كان هاهنا ، وكان يذكرك، وقد خرج ، فخرج الفتى في أثره فلحقه على مرحلتين أو ثلاث من الرقة، فقال: ـ أي : ابن المبارك ـ يا فتى! أين كنت؟ لم أرك في الخان؟! قال: نعم يا أبا عبد الرحمن! كنت محبوسًا بدين، قال: وكيف كان سبب خلاصك؟ قال: جاء رجل وقضى ديني، ولم أعلم به، حتى أخرجت من السجن، فقال له عبد الله: يا فتى! احمد الله على ما وفق لك من قضاء دينك، فلم يخبر ذلك الرجل أحدًا إلا بعد موت عبد الله.





خامساً

الصدق

وأما الصدق[1]:

فقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

قال ابن كثير في «تفسير القرآن العظيم» (٢/٣٦٣):

«أي: اصدقوا والزموا الصدق تكونوا من أهله وتنجوا من المهالك، ويجعل لكم فرجًا من أموركم ومخرجًا... وقال الحسن البصري: إن أردت أن تكون مع الصادقين؛ فعليك بالزهد في الدنيا، والكف عن أهل الملة».

قال القشيري:

«الصدق عماد الأمر، وبه تمامه، وفيه نظامه، وأقله: استواء السر والعلانية».

وقال سهل بن عبد الله التستري:

«لا يشم رائحة الصدق عبد داهن نفسه أو غيره».

قلت: والمداهنة هي إظهار الإنسان خلاف ما يبطن.

وقال ذو النون المصري:

«الصدق: سيف الله، ما وضع على شيء إلا قطعه».

وقال الحارث المحاسبي:

«الصادق: هو الذي لا يبالي لو خرج كل قدر له في قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه، ولا يحب اطلاع الناس على مثاقيل الذر من حسن عمله، ولا يكره اطلاعهم على السيئ من عمله؛ لأن كراهته ذلك دليل على أنه يحب الزيادة عندهم، وليس هذا من أخلاق الصديقين».

وقال أبو القاسم الجنيد بن محمد:

«الصادق يتقلب في اليوم أربعين مرة، والمرائي يثبت على حالة واحدة

---

(١) «آداب العالم والمتعلم» (ص ٩ ـ ١٠) للإمام النووي.

أربعين سنة».

قال الإمام النووي:

معناه أن الصادق يدور مع الحق حيث دار ، فإذا كان الفضل الشرعي في الصلاة - مثلاً - ؛ صلى، وإذا كان في مجالسة العلماء والصالحين والضيفان والعيال ، وقضاء حاجة مسلم، وجبر قلب مكسور، ونحو ذلك؛ فعل ذلك الأفضل وترك عادته، وكذلك الصوم، والقراءة، والذكر، والأكل، والشرب ، والجد ، والمزح، والاختلاط، والاعتزال، والتنعم ونحوها فحيث رأى الفضيلة الشرعية في شيء من هذا فعله، ولا يرتبط بعادة ، ولا بعبادة مخصوصة، كما يفعله المرائي.

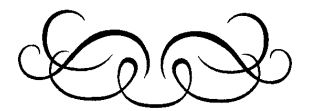
* خرج ابن عساكر ، عن هارون بن رباب أن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما لما حضرته الوفاة قال: انظروا فلانًا، فإني كنت قلت له في ابنتي قولاً كشبه العدة، فما أحب أن ألقى الله بثلث النفاق، فأشهدكم أني قد زوجته[1].

• وهذا رجل أخلص النية ، وصدق، فدخل الجنة ، ولم يصل قط [الأصيرم]:

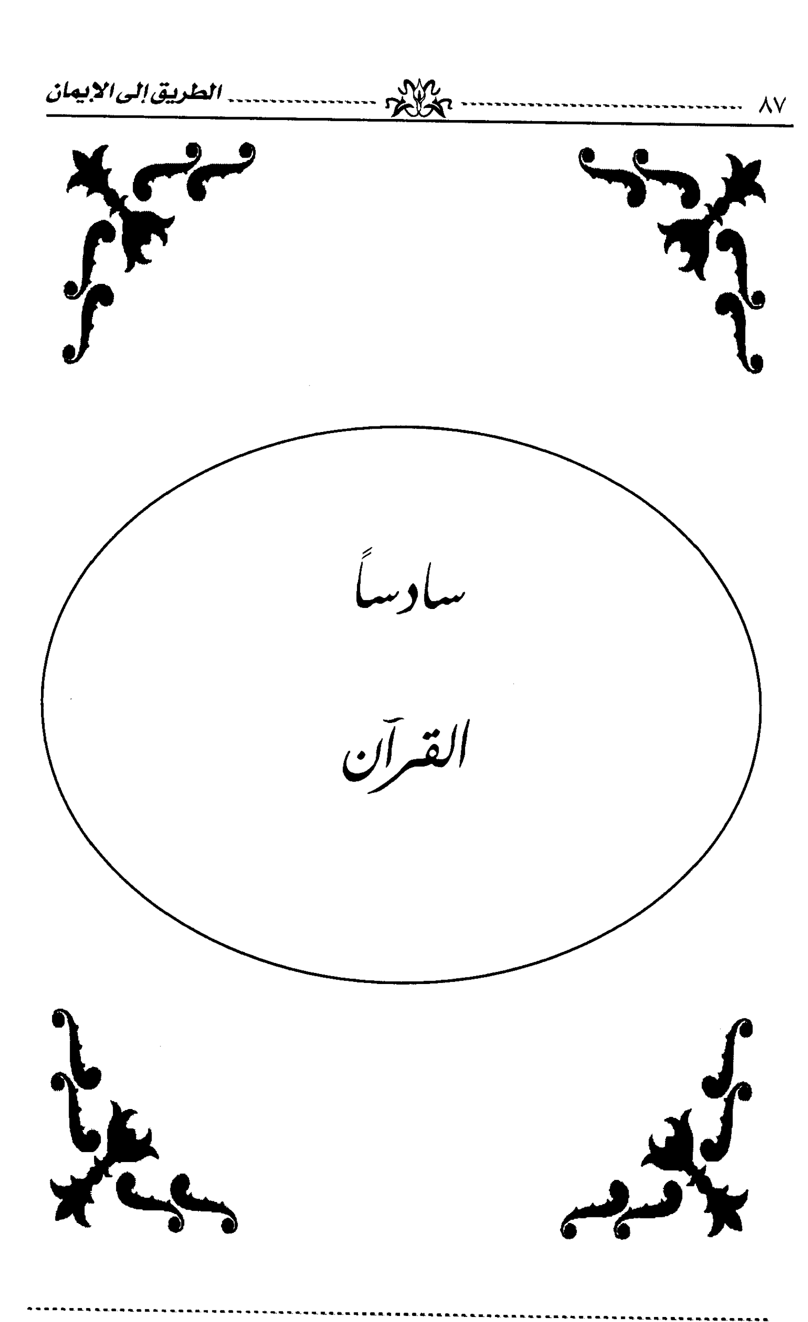
خرج ابن إسحاق ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان يقول: حدثوني عن رجل دخل الجنة ، ولم يصل قط؟ فإذا لم يعرفه الناس؛ سألوه من هو؟ فيقول: أصيرم بني عبد الأشهل ، عمرو بن ثابت بن وقش، قال الحصين: فقلت لمحمود بن لبيد: كيف كان شأن الأصيرم؟ قال: كان يأبى الإسلام على قومه، فلما كان يوم أحد بدا له فأسلم، ثم أخذ سيفه فغدا حتى دخل في عرض الناس فقاتل حتى أثبتته الجراح، قال: فبينما رجال من بني عبد الأشهل يلتمسون قتلاهم في المعركة إذا هم به، فقالوا: والله! إن هذا للأصيرم، ما جاء به؟ لقد تركناه وإنه لمنكر لهذا الحديث، فسألوه، فقالوا: ما جاء بك يا عمرو؟ أحدب على قومك؟ أم رغبة في الإسلام؟ فقال: بل

(١) «حياة الصحابة» (٢/ ٥١٣).

رغبة في الإسلام آمنت بالله وبرسوله ، وأسلمت ، ثم أخذت سيفي ، وغدوت مع رسول الله ﷺ فقاتلت حتى أصابني ما أصابني، فلم يلبث أن مات في أيديهم ، فذكروه لرسول الله ﷺ فقال: «**إنه من أهل الجنة**»[1] .



(١) «حياة الصحابة» (١/ ٤٧٩).



سادساً

القرآن

التقوى في القلوب:

«قال أبو الدرداء (رضي الله عنه) يا حبذا نوم الأكياس، وفطرهم كيف يغبنون به قيام الحمقى وصومهم؟! والذرة من صاحب تقوى أفضل من أمثال الجبال عبادة من المغترين، وهذا من جواهر الكلام، وأدله على كمال فقه الصحابة وتقدمهم على من بعدهم في كل خير (رضي الله عنهم).

فاعلم أن العبد إنما يقطع منازل السير إلى الله بقلبه وهمته، لا ببدنه، والتقوى في الحقيقة تقوى القلوب، لا تقوى الجوارح، قال (تعالى): ﴿**ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ**﴾ [الحج: ٣٢]. وقال: ﴿**لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ**﴾ [الحج: ٣٧]، وقال النبي (صلى الله عليه وسلم): «**التقوى هاهنا، وأشار إلى صدره**»[1].

فالكيس يقطع من المسافة بصحة العزيمة، وعلو الهمة، وتجريد القصد وصحة النية مع العمل القليل، أضعاف أضعاف ما يقطعه الفارغ من ذلك مع التعب الكثير والسفر الشاق، فإن العزيمة والمحبة تُذهب المشقة، وتطيب السير، والتقدم والسبق إلى الله (سبحانه) إنما هو بالهمم وصدق الرغبة والعزيمة، فيتقدم صاحب الهمة مع سكونه صاحب العمل الكثير بمراحل، فإن ساواه في همته تقدم عليه بعمله»[2].

القرآن والقلب:

إن الله (عز وجل) يُنزل من السماء ماءً على الأرض الجدباء، فتنبت من ثمرها، وتحيا الأرض بعد موتها، فتهتز الأرض، وتعلو بعد أن كانت خاشعة، ذليلة، ولكنها تنبت الخبيث والطيب، وتنبت الثمار ذات الرائحة الطيبة، والثمار ذات الرائحة الخبيثة.

وكذا القرآن، أنزل الله (عز وجل) القرآن على قلب محمد (صلى الله عليه وسلم)، ليقرأه على قلوب المؤمنين، وقلوب عامة الناس، وسماه الله (عز وجل) بأنه

(١) الحديث صحيح، رواه مسلم في «صحيحه» «ح» (٢٥٦٤).

(٢) «الفوائد» (١٤٨ ـ ١٤٩).

روحٌ؛ لتعلق حياة القلوب به، فالقلب الذي يشعر بالقرآن، ويحسه، ويحبه، هو القلب الحي، أما القلب الذي لا يشعر بالقرآن فهو قلب ميت، وكما فعلت الأرض بعد أن أنزل الله عليها الماء، فعلت القلوب تبعًا في ذلك لأصلها، فمن القلوب من وجد في القرآن حياته، ومنها من وجد فيه شقاءه، ومنهم من أحيا القرآن قلبه بعد أن كان ميتًا، ومنهم من نأى عن القرآن، وهجره، وجعله من أعدائه.

«وإذا أردت الانتفاع بالقرآن؛ فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألف سمعك واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به (سبحانه) منه إليه، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله، قال (تعالى): ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**﴾ [ق: ٣٧].

وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفًا على مؤثر مقتض ومحل قابل، وشرط لحصول الأثر وانتفاء المانع الذي يمنع منه، تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأدله على المراد.

فقوله: ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ**﴾ إشارة إلى ما ذُكر في أوائل السورة من الحديث عن الآخرة، وعن الخلق، وهذا هو المؤثر، وقوله: ﴿**لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ**﴾ فهذا هو المحل القابل، والمراد به: القلب الحي الذي يعقل عن الله كما قال (تعالى): ﴿ **إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ * لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا** ﴾ [يس: ٦٩ - ٧٠] أي: حي القلب، وقوله: ﴿**أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ**﴾ أي: وجه سمعه وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له، وهذا شرط التأثر بالكلام.

وقوله: ﴿**وَهُوَ شَهِيدٌ**﴾ أي: شاهد القلب حاضر غير غائب.

قال ابن قتيبة:

استمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم، ليس بغافل، ولا ساه، وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير، وهو سهو القلب وغيبته عن تعقل ما يقال له، والنظر فيه وتأمله، فإذا حصل المؤثر وهو: القرآن، والمحل القابل، وهو: القلب الحي، ووجد الشرط وهو: الإصغاء، وانتفى المانع

وهو: اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب، وانصرافه عنه إلى شيء آخر، حصل الأثر وهو: الانتفاع والتذكر.

القلب الحي:

من الناس من يكون حي القلب، واعيه، تام الفطرة، فإذا فكر بقلبه وجال بفكره، دله قلبه وعقله على صحة القرآن، وأنه الحق، وشهد قلبه بما أخبر به القرآن، فكان ورود القرآن على قلبه نورًا على نور الفطرة، وهذا وصف الذين قيل فيهم: ﴿**وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ**﴾ [سبأ: ٦].

وقال في حقهم: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [النور: ٣٥].

فهذا نور الفطرة، على نور الوحي، وهذا حال صاحب القلب الحي الواعي.

فصاحب القلب يجمع بين قلبه وبين معاني القرآن، فيجدها كأنها قد كتبت فيه، فهو يقرؤها عن ظهر قلب، ومن الناس من لا يكون تام الاستعداد، واعي القلب، كامل الحياة، فيحتاج إلى شاهد يميز له بين الحق والباطل، ولم تبلغ حياة قلبه ونوره وزكاء فطرته، مبلغ صاحب القلب الحي الواعي، فطريق حصول هدايته أن يفرغ سمعه للكلام، وقلبه لتأمله والتفكر فيه وتعقل معانيه، فيعلم حينئذ أنه الحق.

فالأول: حال من رأى بعينه ما دعي إليه وأخبر به.

والثاني: حال من علم صدق المخبر وتيقنه ، وقال: يكفيني خبره، فهو في مقام الإيمان، والأول في مقام الإحسان، هذا قد وصل إلى علم اليقين، وترقى قلبه منه إلى منزلة عين اليقين، وذاك معه التصديق الجازم الذي خرج به من الكفر، ودخل به في الإسلام.

فعين اليـقين نوعان: نوع في الدنيا، ونوع في الآخرة، فـالحاصل في الدنيا نسبـته إلى القلب كنسبة الشاهد إلى العين، ومـا أخبرت به الرسل من الغيب يعاين في الآخرة بالأبصار، وفي الدنيـا بالبصائر، فهو عين اليقين في المرتبتين.

تأمل خطابَ القرآن ، تجد مَلِكًا له الملكُ كلُّه ، ولـه الحمدُ كلُّه، أزمّةُ الأمور كلّها بيده، ومصدرها منه، ومردها إليه، مستويًا على سرير ملكه، لا تخفى عليه خافـية في أقطار مملكته، عالمًا بما في نفوس عبـيده، مطلعًا على أسرارهم وعـلانيتهم، منفـردًا بتدبير المملكة، يسـمع ويرى، ويعطي ويمنع، ويثـيب ويعاقب، ويكرم ويهين، ويـخلق ويرزق، ويميت ويُحيي، ويقـدر، ويقضي، ويدبر الأمـورَ، نازلةً من عنده دقيقـها وجليلها، وصاعـدةً إليه لا تتحرك في ذرة إلا بإذنه، ولا تَسقط ورقةٌ إلا بعلمه.

فتـأمل كيف تجده يـثني على نفسه، ويمجِّـد نفســه، ويحمد نفـسه، وينصح عبـاده، ويدلّهم على ما فيـه سعادتهم، وفـلاحهم، ويرغِّبهم فـيه، ويحذِّرهم مما فيه هلاكُهم، ويتعرف إليهم بأسمائه، وصفاته، ويتحبب إليهم بنعمه ، وآلائه، فيـذكرهم بنعمه عليهم، ويأمرهم بما يستوجـبون به تمامها، ويحذِّرهم من نِقـمه، ويذكرهم بمـا أعد لهم من الكرامة، إن أطاعـوه، وما أعد لهم من العـقوبة، إن عـصوه، ويخبـرهم بصنعه فى أوليـائه وأعدائه، وكيف كانت عاقبة هؤلاء ، وهؤلاء.

القرآن كلام الله، وقد تجلـى الله فيه لعباده بصفاته، فـتارةً يتجلَّى فى جلباب الهيبة والعظمة والجلال؛ فتخضع الأعناق، وتنكسر النفوس، وتخشع الأصـوات، ويذوب الكِبـر، كـما يذوب المـلح فى الماء، وتارةً يتـجلى فى صفات الجمـال والكمال، وهو كمال الأسماء ، وجمال الصـفات، وجمال الأفعـال الدال على كمال الذات، فـيستنفد حـبه من قلب العبـد قوة الحب كلها، بحسب مـا عرفه من صفات جـماله ، ونعوت كماله، فيـصبح فؤاد عبده فارغًا إلا من محبته، فإذا أراد منه الغير أن يعلق تلك المحبة به أَبَى قلبُه

وحشاؤه ذلك كلَّ الإباء، كما قيل:

يُراد من القلب نسيانكم

وتأبى الطباعُ على الناقلِ

فتبقى المحبة له طبعًا لا تكلُّفًا، وإذا تجلى بصفات الرحمة والبر واللطف والإحسان، انبعثت قوة الرجاء من العبد، وانبسط أمله، وقوِي طمعه، وسار إلى ربه، وحادي الرجاء يحدو ركاب سيره، وكلما قوى الرجاء جَدَّ في العمل، كما أن الباذر كلما قوِي طمعُه في المغلِّ غلق أرضَه بالبذر، وإذا ضعف رجاؤه قصر فى البذر.

وإذا تجلى بصفات العدل، والانتقام، والغضب، والسخط، والعقوبة، انقمعت النفس الأمارة، وبطلت أو ضعفت قواها من الشهوة، والغضب، واللهو واللعب، والحرص على المحرمات، وانقبضت أعنة رعوناتها، فأحضرت المطية حظها من الخوف والخشية والحذر.

وإذا تجلى بصفات الأمر والنهي، والعهد، والوصية، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب وشرع الشرائع، انبعثت منها قوة الامتثال والتنفيذ لأوامره، والتبليغ لها، والتواصي بها، وذكرها وتذكرها، والتصديق بالخبر، والامتثال للطلب، والاجتناب للنهي.

وإذا تجلى بصفات السمع والبصر والعلم؛ انبعثت من العبد قوة الحياء، فيستحي من ربِّه أن يراه على ما يكره، أو يسمع منه ما يكره، أو يخفي في سريرته ما يمقته عليه، فتبقى حركاته، وأقواله، وخواطره موزونة بميزان الشرع غير مهملة، ولا مرسلة تحت حكم الطبيعة والهوى.

وإذا تجلى بصفات الكفاية والحسب، والقيام بمصالح العباد، وسوق أرزاقهم إليهم، ودفع المصائب عنهم، ونصره لأوليائه، وحمايته لهم، ومعيته الخاصة لهم؛ انبعثت من العبد قوة التوكل عليه، والتفويض إليه، والرضا به، وبكل ما يجريه على عبده، ويقيمه فيه مما يرضى به هو سبحانه، والتوكل معنى يلتئم من علم العبد بكفاية الله، وحسن اختياره

لعبده، وثقته به، ورضاه بما يفعله به، ويختاره له.

وإذا تجلى بصفات العزِّ والكبرياء، أعطت نفسه المطمئنة ما وصلت إليه من الذل لعظمته، والانكسار لعزته، والخضوع لكبريائه، وخشوع القلب والجوارح له؛ فتعلوه السكينة، والوقار في قلبه، ولسانه، وجوارحه، وسَمْتِه، ويذهب طيشه، وقوته، وحدته»[1].

وقال ابن قيم الجوزية:

فائدة: الشهقة عند سماع القرآن:

الشهقة التي تعرض عند سماع القرآن أو غيره لها أسباب:

أحدها: أن يلوح له عند السماع درجة ليست له فيرتاح إليها، فتحدث له الشهقة، فهذه شهقة شوق.

وثانيها: أن يلوح له ذنب ارتكبه فيشهق خوفًا وحزنًا على نفسه، وهذه شهقة خشية.

وثالثها: أن يلوح له نقص فيه لا يقدر على دفعه عنه، فيحدث له ذلك حزنًا فيشهق شهقة حزن.

ورابعها: أن يلوح له كمال محبوبه ويرى الطريق إليه مسدودة عنه، فيحدث ذلك شهقة أسف وحزن.

خامسها: أن يكون قد توارى عنه محبوبه واشتغل بغيره فذكره لسماع محبوبه، فلاح له جماله ورأى الباب مفتوحًا والطريق ظاهرة، فشهق فرحًا وسرورًا بما لاح له.

وبكل حال: فسبب الشهقة قوة الوارد وضعف المحل عن الاحتمال، والقوة أن يعمل ذلك الوارد عمله داخلاً ولا يظهر عليه، وذلك أقوى له وأدوم، فإنه إذا أظهره ضعف أثره وأوشك انقطاعه، هذا حكم الشهقة من الصادق، فإن الشاهق إما صادق وإما شارق، وإما منافق.

(١) «الفوائد» لابن القيم.

هجر القرآن أنواع:

إحداها: هجر سماعة والإيمان به، والإصغاء إليه.

والثـاني: هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه وإن قرأه وآمن به.

والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه واعتقاد أنه لا يفيد اليقين وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم.

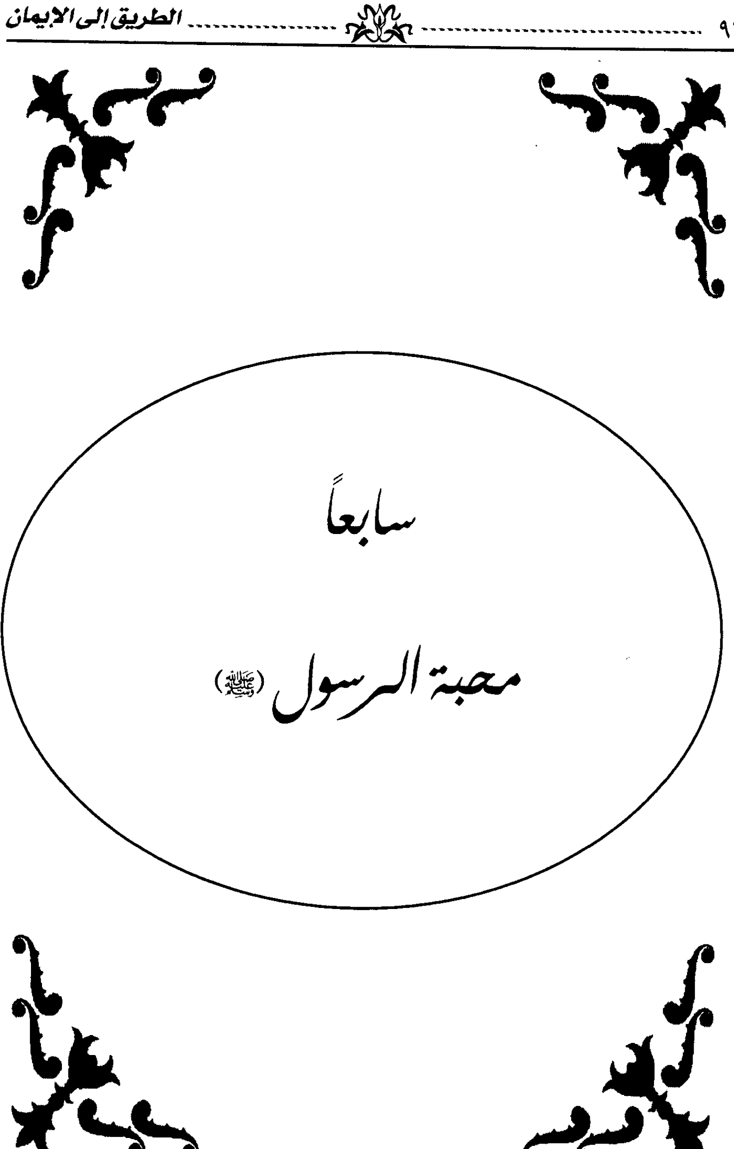
والرابع: هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

والخـامس: هجر الاستشفـاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها، فيطلب شفاء دائه من غيره ويهجر التداوي به.

وكل هـذا داخـل في قوله: ﴿**وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً**﴾ [الفرقان: ٣٠]، وإن كان بعض الهجر أهون من بعض.

وكـذلك الحرج الـذي في الصدور منـه، فإنه تارة يكـون حرجًـا من إنزاله، وكونه حـقًا من عند الله، وتارة يكون من جهـة المتكلم به، أو كونه مخلوقًـا من بعض مخلوقاته ألهـم غيره إن تكلم به، وتارة يكون من جـهة كفايته وعدمها، وأنه لا يكفي العبـاد، بل هم محتاجون معه إلى المعقولات والأقيسـة، أو الآراء أو السياسات، وتارة يكون من جهـة دلالته وما أريد به حقائقه المفهومة منه عند الخطاب، أو أريد به تأويلهـا وإخراجها عن حقائقها إلى تأويلات مستكرهة مشتركة، وتارة يكون من جهة كون تلك الحقائق وإن كانت مـرادة، فهي ثابتـة في نفس الأمـر، أو أوهم أنها مرادة لـضرب من المصلحة. فكل هـؤلاء في صدورهم حرج من القـرآن، وهم يعلمون ذلك من نفوسهم، ويجـدونه في صدورهم. ولا تجد مبـتدعًا في دينه قط إلا وفي قلبه حرج من الآيات التي تخـالف بدعته، كما أنك لا تجـد ظالمًا فاجرًا إلا وفي صدره حـرج من الآيات التي تحول بينه وبين إرادته، فتـدبر هـذا المعنى ثم ارض لنفسك بما تشاء.[1] اهـ

(١) «الفوائد» لابن القيم.



سابعاً

محبة الرسول (ﷺ)

المحبة تتبع المعرفة:

اللذة تابعة للمحبة، تقوىٰ بقوتها، وتضعف بضعفها، فكلما كانت الرغبة في المحبوب والشوق إليه أقوىٰ؛ كانت اللذة بالوصول إليه أتم، والمحبة والشوق تابع لمعرفته والعلم به، فكلما كان العلم به أتم كانت محبته أكمل، فإذا رجع كمال النعيم في الآخرة ، وكمال اللذة إلىٰ العلم والحب، فمن كان يؤمن بالله وأسمائه وصفاته وبه أعرف، كان له أحب، وكانت لذته بالوصول إليه ومجاورته والنظر إلىٰ وجهه وسماع كلامه أتم.

وكل لذة ونعيم وسرور وبهجة بالإضافة إلىٰ ذلك كقطرة في بحر، فكيف يؤثر من له عقل لذة ضعيفة قصيرة، مشوبة بالآلام علىٰ لذة عظيمة دائمة أبد الآباد؟!

وكمال العبد بحسب هاتين القوتين: العلم والحب، وأفضل العلم: العلم بالله، وأعلىٰ الحب: الحب له، وأكمل اللذة بحسبهما[1].

وإن أردت أن تعلم لماذا يجب عليك أن تحب النبي (ﷺ) أكثر من نفسك، وأكثر من ولدك، وأكثر من كل شيء، فاعلم أن الحب كله يجب أن يتجه إلىٰ الله (عز وجل) ـ كما بينا ذلك في معرفة الله ـ فإن اتجه كل الحب إلىٰ الله (عز وجل)، أحب الإنسان ما يحب الله، وكره ما يكره الله.

قال (ﷺ): «**إن الله قال: من عادىٰ لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل، حتىٰ أحبه، فإذا أحببته؛ كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت، وأنا أكره مساءته**»[2].

---

(١) «الفوائد» لابن القيم.

(٢) خرجه البخاري في «صحيحه» (٥/ ٢٣٨٤) «ح» (٦١٣٧).

فإن كنت من الذين أحبهم الله (عز وجل)، وكان سمعك لا يسمع إلا ما يحب الله، وبصرك لا يبصر إلا ما أحل الله، ولا تسعى في الشر، وكل سعيك في الخير، وجدت أن رسول الله (ﷺ) هو أحب الناس إليك، ذلك لأن الله (عز وجل) أحبه أكثر من أي إنسان آخر، وفضله على النبيين، واصطفاه، فلهذا فمن أحب الله حق المحبة، أحب ما أحبه الله، فإن كان الله (سبحانه) يحب محمدًا أحببنا محمدًا، وإن كان يحب الصلاة؛ أحببنا الصلاة، والأعمال التي يحبها الله أكثر، تكون مقربة إلينا أكثر، والأشخاص الذين أحبهم الله؛ نحبهم لحب الله لهم، وعلى درجة قربهم من ربهم، تكون درجتهم من قلوبنا.

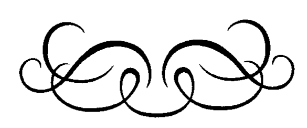
ألا ترى أن ابن نوح (ﷺ) كان كافرًا؛ لذا أخبر الله (عز وجل) أنه ليس من أهله، وأخبر بأن المؤمنين أخوة، فانظر.

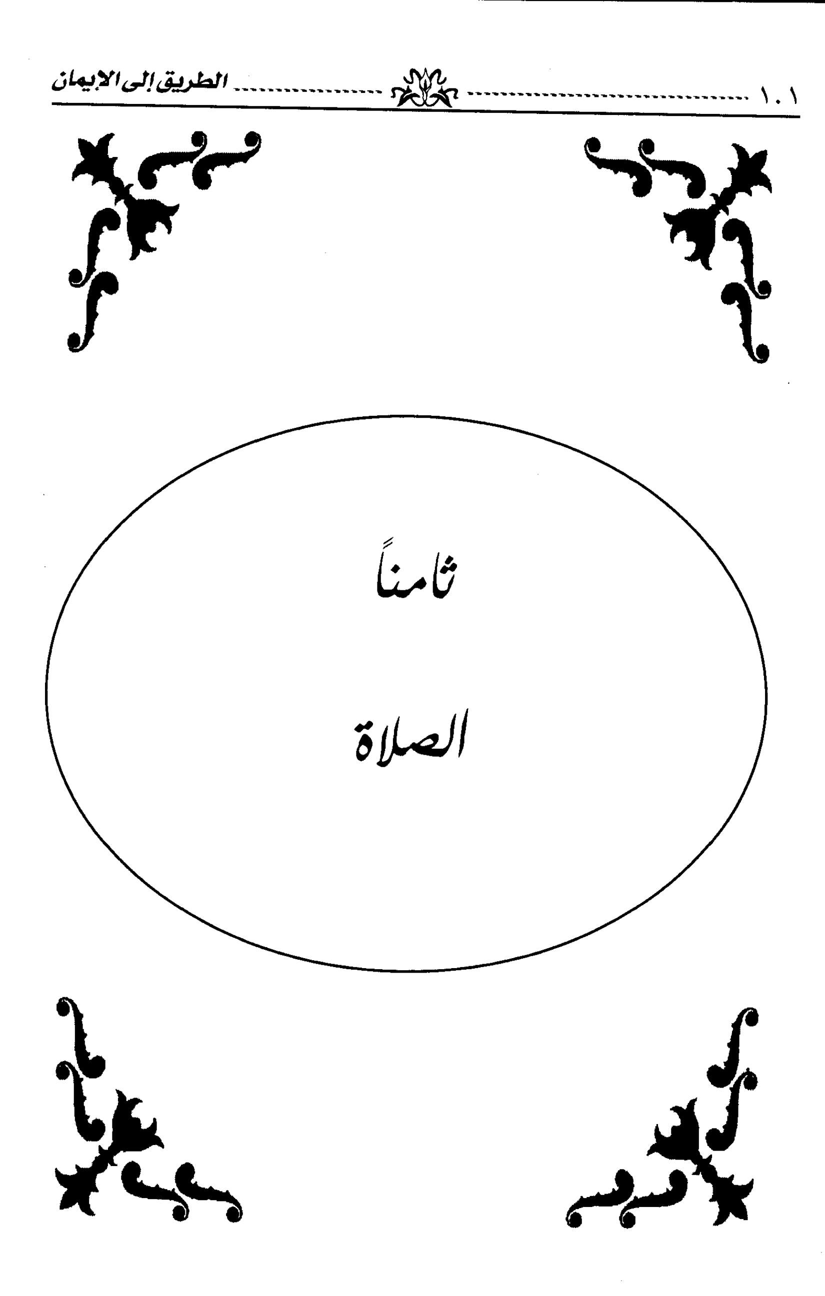
إن كنت تحب نفسك، فاسأل نفسك: هل الله يحبني أكثر أم يحب رسول الله (ﷺ) أكثر، فإن كان يحب الرسول (ﷺ) أكثر من حبه لي؛ أحببت أنا الرسول (ﷺ) أكثر من حبي لنفسي.

وإن فضل الله (عز وجل) الصلاة، وجعلها أحب الأعمال إليه، كانت الصلاة هي أحب الأعمال إلينا؛ ذلك لأن الله يحبها.

فالمؤمن الحق هو الذي يحب ما أحب الله، ويكره ما كره الله، ويفضل ما فضل الله.

فهذا أصل المحبة لرسول الله (ﷺ)، أن الله (عز وجل) أحبه أكثر من أي إنسان آخر، وأحبه أكثر من أي نبي آخر، فكان لزامًا على كل من أحب الله أن يحب رسول الله (ﷺ) أكثر من أي شيء آخر.





ثامناً

الصلاة

لماذا نصلي؟

إن الصلاة قد فرضت على بني آدم؛ لتطهر بني آدم من خطاياهم، ولكي تساعدهم على نيل أعلى درجات الجنة، فإن الله الحليم الكريم، قد أمرنا بالصلاة لا لنتعذب بها، ولا لنرهق أنفسنا بها، ولكن لنستريح بها، وتكون الملجأ لنا في الشدائد، وهي تكفر عن السيئات التي يقع الإنسان فيها في يومه، ولولاها لكانت تلك السيئات كفيلة بأن تطرحه في النار، ولكن الصلاة جعلها الله لكي تغسلنا من السيئات والذنوب والمعاصي، فقد قال رسول الله (ﷺ) : «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر**»[1]، فانظر إلى حالك ـ أيها العبد ـ فمن في حاجة إلى أن تُغفر له سيئاته، ألست أنت. فلهذا فرضت الصلاة، فهي تهدم ما تقترفه من السيئات والذنوب، وقد قال رسول الله (ﷺ) : «**مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار عذب على باب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، فما يبقي ذلك من الدنس؟**»[2] قالوا: لا شيء، قال (ﷺ) : «**إن الصلوات الخمس يذهبن بالذنوب كما يذهب الماء الدرن**[3]»[4].

وبهذه الصلاة يكون لك عند الله عهدٌ بأن تدخل الجنة، فقد قال رسول الله (ﷺ) : «**خمس صلوات كتبهن الله على العبد فمن جاء بهن، ولم يضيع منهن شيئًا استخفافًا بحقهن؛ كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد، إن شاء عذبه، وإن شاء أدخله الجنة**»[5].

---

(١) «صحيح الجامع» (٣٨٧٥).
(٢) «صحيح الجامع» (٥٨٣٠)
(٣) الدرن: الوسخ.
(٤) «صحيح الجامع» (١٦٦٨).
(٥) خرجه أبو داود، والنسائي، وابن ماجة، وابن حبان من حديث عبادة بن الصامت، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٢٤٣).

والصلاة هي أحب الأعمال إلى الله (عز وجل) لذلك لما سئل رسول الله (ﷺ) عن أفضل الأعمال قال: «**الصلاة لمواقيتها**»[١].

والصلاة هي أول ما يحاسب عليه العبد، فإن كانت تامة، كانت سببًا في قبول سائر عمله، وإن كانت ناقصة كانت سببًا في رد سائر عمله، فقد قال رسول الله (ﷺ) : «**إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله: الصلاة. فإن صلحت؛ فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت؛ فقد خاب وخسر، وإن انتقص من فريضة قال الرب: انظروا هل لعبدي من تطوع؟ فيكمل بها ما انتقص من الفريضة ، ثم يكون سائر عمله على ذلك**» [٢].

ومن أراد أن يرافق رسول الله (ﷺ) في الجنة، فعليه بكثرة الصلاة، فقد قال رجل لرسول الله (ﷺ) : ادع الله أن يجعلني من أهل شفاعتك وأن يرزقني مرافقتك في الجنة فقال (ﷺ) : «**أعني بكثرة السجود**»[٣]. أي: بكثرة الصلاة.

فهذه هي الصلاة التي يستثقلها الكثير من الناس، ولا يؤدونها، فهي التي ترفع درجاتهم، وهي التي تجعلهم يرافقون محمدًا (ﷺ) في الجنة، وهي التي تكفر السيئات وتمحوها، وهي الدعاء، وهي السر والمناجاة بين العبد وربه.

كيف نتم الصلاة؟

إن العبد ليصلي الصلاة، وقد لا يأخذ منها شيئًا، فمن الناس من يصلي، ولكن لا يكون حظه منها إلا التعب؛ ذلك لأنه لم ينل منها حسنات، وقال (ﷺ) : «**كم من قائم حظه من صلاته التعب والنصب**»[٤].
وقال ابن عباس ـ كما أخبر بذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في فتاويه ـ :

---

(١) متفق عليه.

(٢) «صحيح الجامع» (٢٠٢٠).

(٣) «صحيح الجامع» (٤٠٥٠).

(٤) «صحيح الجامع» (١٦٢٦).

«**ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها**»[1] ، والسؤال: كيف نتم الصلاة؟

والجواب:

إن الله ـ عز وجل ـ فرض الصلاة لكي يذكره العبد، فقال تعالىٰ: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي**﴾ [طه: ١٤]. أي: الصلاة شرعت لذكر الله (عز وجل) لذا فقد وردت آيات بالتحذير من قرب الصلاة للسكران، ذلك أن السكران لا يعلم ما يقول، فكيف يذكر الله؟ إنه يذكره بلسانه، وقلبه غافل، وهو كمن تحدث بآية من القرآن وهو نائم، ولا يعلم ما يقول، فهل يثاب عليها؟! أو كمن رأىٰ منكرًا ولم يأمر بالمعروف، ولم ينه عن المنكر، ثم لما غلبه النوم، تحدث في نومه وقال: هذا لا يجوز، فهل هو آمر بالمعروف في نومه، وهل يثاب علىٰ سكوته في يقظته؟! بالطبع لا، فليس للمرء من الأعمال إلا ما كان خالصًا لوجه الله أولاً، ثم مصحوبًا بنية ثانيًا.

وكم من عبدٍ لا يعي ما يقول في الصلاة، ولكنه يحرك شفتاه، ويحرك جسده! والصلاة لم تشرع لذلك، فهل يقبل الله من عبدٍ كلمات لا يعلمها، أو حركات لا يحبها، أو صلاة يستثقلها علىٰ نفسه.

لذا كان العبد بعد خروجه من الصلاة له من الأجر علىٰ قدر حضور قلبه فيها، فمن الناس من يغلب عليه حضور القلب، فيأخذ من صلاته كلها، ومن الناس مَن يَصلُ إلىٰ أن يأخذ عشرها، ومن الناس من يكون حظه منها التعب والنصب، فقال رسول الله (ﷺ) : «**إن الرجل لينصرف، وما يكتب له إلا عشر صلاته، تسعها، ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها**»[2].

إذا إتمام الصلاة لا يتحقق إلا بحضور بأمور، ذكرها الإمام الغزالي في «الإحياء» وهي:

حضور القلب، والتفهم، والتعظيم، والهيبة ، والرجاء، والحياء.

(١) وقال شيخ الإسلام ابن تيمية أن هذا الحديث من قول ابن عباس. راجع الفتاوىٰ.

(٢) «صحيح الجامع» (١٦٢٦).

فأما حضور القلب:

هو أن يفرغ القلب عن غير ما هو ملابس له، ومتكلم به، فيكون تفكيره في أقواله ـ أي في أقوال الصلاة ـ ، ولا يكون الفكر جائلاً في الدنيا وأحزانها، وربما يكون القلب حاضرًا مع اللفظ، ولا يكون حاضرًا مع معنى اللفظ، أي: يعلم الكلمات التي يقولها، ولكنه لا يفهم ما معنى هذه الكلمات، وما السبب في قوله إياها؟!

التفهم:

وليس الناس كلهم يفهمون معاني القرآن والتسبيحات، وكم من معان لطيفة يفهمها المصلي في أثناء الصلاة، ولم يكن قد خطر بقلبه ذلك قبلاً! فقد يعرض له عارض ، أو يمر بضيق في الرزق، ثم يجد سعة من الله (عز وجل) فإذا قرأ الفاتحة، وقال : الحمد لله رب العالمين، خطر على قلبه ما مر به من ضيق، وما أخلفه الله عليه من سعة، فتخرج الكلمات وهي تملأ الصدر، وهو يفهمها، ويستشعرها تمام الاستشعار، ويقرنها بهذا المأزق الذي مر به، فيكون عنده فهم أن الله يجب أن يحمد.

التعظيم:

والتعظيم هو ما يأتي بعد حضور القلب والفهم، إذ الرجل إذا خاطب ابنه الصغير، وهو حاضر القلب ومتفهم لما يقول، فلا يكون هناك تعظيمًا لابنه، ولكنها شفقة ورحمة، فالتعظيم مرحلة أخرى يجب أن يستشعرها العبد، فإنك إذا وقفت بين يدي أحد ملوك الأرض، وكنت تعلم شدته وبطشه، فإنك تكون على حذر منه وخوف، وإن كان من الملوك الذين يعدلون فإنك بين يديه تُكنُّ له كل الإعظام والاحترام.

فهكذا يجب أن يكون الحال مع ملك الملوك، ورب الأرباب، خالق الملائكة، وخالق الأرض والسموات، وخالق الليل والنهار، المتكبر، العزيز، الجبار.

الهيبة:

وهي عبارة عن خوف شـديد، ينشأ من التعظيم لله (عز وجل) وليس هذا الخوف كالخـوف من ثعبان ـ مثـلاً ـ أو من سوء خُلق عبد من العـبيد، ولكن هـذا الخوف مصدره الإجلال والتعظيم.

الرجاء:

كم من الملوك يـهـابه الناس، ويخـافـون سطوتـه، ولكن لا يرجـون مثوبتـه! والعبد يجب أن يكون راجيًا بصلاته ثواب الله (عـز وجل) كما أنه يخاف من تقصيره أن يعاقبه الله (عز وجل).

الحياء:

والحياء ينشأ من استشعار العبد بأن هـذا العمل ـ وإن أداه ـ به نقص أو تقصير، وأنه سيعاقب عليه ولا يثاب.

من هـذه الأمور الستة يستطيع العـبد أن يصلي صلاة أقرب للخشوع، فإن حضور القلب سببه الهمة، لأن قلبـك تابع لهمتك، فلا يحضر إلا فيما يهمك، فإن كانت الصلاة هي همك، فـإنك إذا سمعت النداء إليها، تكون قد وجدت ضـالتك، وتسعى إليها فرحًـا بشوشًا ، محبًا لهـا، أما إن كانت الصلاة لا تهمك، فإنك تسمع النداء، وأنت ساه لاه وربما تستمع إلى الغناء الذي هو من أكبـر الآثام والمعاصي، وأي أمر يهـمكَ تجد قلبك حاضرًا فـيه شاء أم أبى، فالقلب مجبول على ذلك، ومسخر فيه.

فلا حـيلة ولا علاج لإحضـار القلب إلا بصرف الهمـة إلى الصلاة، وحبها، والهمة لا تنصرف إليـها ما لم يتبين أن الغرض المطلوب منوط بها، وذلك هو الإيمان والتـصديـق بأن الآخرة خـير وأبـقى، وأن الصلاة وسـيلة إليها، فإذا أضيف هـذا إلى حقيقة العلم بحقارة الدنيا ومـهماتها حصل من مجموعها حضور القلب في الصلاة.

وكيف لا يكون قلبك حـاضرًا عند المناجاة مـع ملك الملوك الذي بيده

الملك والملكوت، والنفع والضر، فلا تظنن أن له سببًا سوى ضعف الإيمان، فاعمل على أن تقوي إيمانك.

وإذا حصل عندك حضور القلب، فتأتي بعد ذلك مرحلة التفهم، وصرف الذهن إلى إدراك المعنى وسبيل تحقيق التفهم هو: الإقبال على التفكر في الله وفي الصلاة، ودفع الخواطر الدنيوية الدنيئة التي تشغل العبد عن صلاته، وإن أردت أن تعالج الخواطر وتدفعها عنك، فاقطع الأسباب التي تنجذب الخواطر إليها، فمن أحب شيئًا؛ أكثر ذكره، فذكر المحبوب يهجم على القلب بالضرورة؛ لذلك ترى أن من أحب غير الله لا تصفو له صلاة عن الخواطر، فاجعل كل اهتمامك محبة الله ومناجاته، ويالها من سعادة حين يقف العبد بين يدي ربه ويناجيه!

وإذا تفهمت انتقلت إلى مرحلة التعظيم، تعظيم الله (عز وجل) وهذه الحالة لا تتولد إلا بمعرفتين:

أولاهما: معرفة جلال الله ـ عز وجل ـ وعظمته، وهو أصل من أصول الإيمان، فإن من لا يعتقد عظمته لا تخضع النفس لتعظيمه.

والأخرى: معرفة حقارة النفس وخستها، وكونها عبدًا مسخرًا، فإن عرفت أن النفس حقيرة، وخسيسة، تولد عندك الاستكانة والانكسار والخشوع لله (سبحانه).

وأما إن حققت ذلك انتقلت إلى الرجاء، وسببه معرفة لطف الله (عز وجل) وكرمه، وعميم إنعامه، ولطائف صنعه، ومعرفة صدقه في وعده الجنة بالصلاة.

أما الحياء فباستشعار التقصير في العبادة، وعلمه بالعجز عن القيام بعظيم حق الله (عز وجل) والمعرفة بعيوب النفس وآفاتها، وقلة إخلاصها لله، وخبث دخلتها وميلها إلى الحظ العاجل في جميع أفعالها، مع العلم بعظيم ما يقتضيه جلال الله (عز وجل) والعلم بأنه مطلع على السر، وخطرات القلب، وإن دقت وخفيت، وإن تحقق ذلك انبعث منها ـ

بالضرورة - حالة تسمى الحياء.

هل حقق هذا الخشوع أحد؟

كان عامر بن عبد الله من خاشعي المصلين، وكان إذا صلى ربما ضربت ابنته بالدف، وتحدث النساء بما يردن في البيت، ولم يكن يسمع ذلك ولا يعقله، وقيل له ذات يوم: هل تحدثك نفسك في الصلاة بشيء؟

قال: نعم! بوقوفي بين يدي الله (عز وجل) ومنصرفي إلى إحدى الدارين.

وكان مسلم بن يسار يصلي وسقط عمود من أعمدة المسجد وهو في الصلاة ، فلم يشعر بها.

وقال عمر بن الخطاب: إن الرجل ليشيب عارضاه في الإسلام وما أكمل لله تعالى صلاة. قيل: وكيف ذلك؟ قال: لا يتم خشوعها وتواضعها وإقباله على الله (عز وجل) .

وكان يحيى بن وثاب إذا صلى مكث ما شاء الله تُعرف عليه كآبة الصلاة، أي: شدة خوفه ألا تقبل هذه الصلاة؟!



الفهرست

تم الكتاب بعون الله وتوفيقه



كتب صدرت للمؤلف

١- كتب طبعت خارج مصر:

١ - الصحيح من كنز الدعاء: دار الدليقان بالسعودية.
٢ - مائة وصفة ذهبية للعلاج بالأعشاب الطبيعية: دار الدليقان بالسعودية.
٣ - الصحيح من التداوي بالقرآن: دار الدليقان بالسعودية.

٢- كتب طبعت داخل مصر:

٤ - كيف تحب الصلاة: مكتبة الإيمان بالمنصورة.
٥ - كيف تحب الصيام: مكتبة الإيمان بالمنصورة.
٦ - فتح العلي في بعض محن النبي (ﷺ): مكتبة الإيمان بالمنصورة.
٧ - امرأة تختار الجنة أم النار: مكتبة الإيمان بالمنصورة.
٨ - الموعظة قبل الزائر الأخير: مكتبة الإيمان بالمنصورة.
٩ - تحقيق الفتاوى السعدية: مكتبة الإيمان بالمنصورة.
١٠ - فتاوي المرأة المسلمة: مكتبة الإيمان بالمنصورة.
١١ - تحقيق العقيدة الطحاوية: مكتبة الإيمان بالمنصورة.
١٢ - تحقيق الأربعين النووية شرح ابن عثيمين: مكتبة الإيمان بالمنصورة.
١٣ - شفاء الأبدان بما أنزل الرحمن «الحجامة»: مكتبة الإيمان بالمنصورة.
١٤ - هؤلاء يكرههم الله: دار ابن لقمان بالمنصورة.
١٥ - قبل السقوط: كيف تدافع المرأة عن نفسها: دار ابن لقمان بالمنصورة.
١٦ - سلسلة فكر المتشددين، وسماحة الدين: دار ابن لقمان بالمنصورة.
١٧ - سلسلة أنبياء الله للأطفال: دار ابن لقمان بالمنصورة.
١٨ - صفات المؤمنين من القرآن: مكتبة الحسن والحسين بدمياط.
١٩ - الطريق إلى الإيمان وإصلاح القلوب: مكتبة الإيمان بالمنصورة.

كتب في إطار الإعداد:

* كيف تحب النبي (ﷺ).
* كيف تعبد الله بأسمائه.
* نساء غيرن مجرى التاريخ.